

نساء في العرة

تأليف
مجلد خزنك

ملتزم الطبع والنشر
عائلة الكتب
٣٨ شارع عبدالحق زوت ٠١٤٠١
القاهرة

**ساهمت وزارة الثقافة والإرشاد
القومي في اخراج هذا الكتاب**

مقدمة

بقلم : رشدى صالح

لا يخلو عصر من عصور التاريخ ، من فن الحكاية والاحدوثة
فالانسان حكااء بطبعه .

ولكن الحكاية الشعبية ليست هى القصة ولن تكون .

الحكاية الشعبية ، احدىوثة ، تريد ان تعظ الناس او تؤرخ
لحياتهم او تسخر من اخطائهم ، او تشنع على الرذائل ، او تجمل
اخير والحق . فهى نوع من الانشاء التلقائى يراد به غاية عملية
شأنه فى ذلك شأن غيره من فروع الادب الشعبى .

وأما القصة القصيرة فنوع من التأليف الفنى ، القائم على
التركيز والتمدد فى السبك ، والقائم على تجويد التعبير الفنى ،
والجدير بأن يعبر عن ملكة الرواية عند الانسان الفرد .

وليس من الاغراض الدائمة ان تعظ او تعلم ، او ان تحقق
اهدافا فلسفية او أخلاقية . وانما يراد بها ، ان كانت قصة أدبية ،
ان تحدث فى نفس القارئ ، ذلك الاثر الكلى الذى قد تحدثه المؤلفه
الموسيقية او القصيدة الشعرية ، او اللوحة المصورة او التمثال
المنحوت .

ومعنى هذا ، انه ينبغى أن يختار الكاتب من بين مجموعة
الاحداث التى تقع له فى الخيال ، او تعرض له فى الحقيقة ، تلك
الاحداث النفسية او الواقعية التى تكون اشد دلالة من سواها .

عنصر الاختيار - اذن - عنصر خطير الاهمية والمكانة فى انشاء
القصة القصيرة . ذلك ان الحياة تقذف بين ايدينا فى كل ساعة بل
فى كل دقيقة ، بعشرات الاحداث ومئاتها ، ولكن أحداث الحياة ،

تأتي متقطعة غير متسقة ، ولعل الكثير منها أن يظل سنوات مبتسرا ناقصا ، ولعل الكثير كذلك أن يشتبك مع أحداث أخرى طارئة ، وأن يتوارى من الذاكرة ويغيب عن الملاحظة .

وكاتب القصة الجيد ، هو هذا الذي يستطيع أن يلتقط مما يرى ويقرأ ويسمع ويجرب ويعانى ، ولما يتصور ويحلم ، ثم يعيد تركيب الأحداث ، ويخلقها خلقا جديدا .

أن ملكة الاستقبال عنده ، لا تقل أهمية عن ملكة الارسال .

هو وجدان شديد الحساسية ، وهو وجدان شديد القوة التعبيرية .

هو انسان متفرد ، فى تصويره ، ومتفرد فى تعبيره عن هذا التصور .

وعندما يحاكي الحياة على اتساعها ، لا يعطينا صورة مطابقة لهذه الحياة بل يعطينا صورة ممكنة أو صورة محتملة . ثم هو يثير فينا الرغبة - أن لم يثر فينا النزوع - الى أن نعيش أو نعانى هذه الحياة المتصورة التى يقدمها فى قصصه أو رواياته .

ولكن أى شىء يعطى كاتب القصة القدرة على التفرد ؟ لماذا يستأثر بقلوبنا ؟ ولماذا يسير أماننا فى عالم تصوراته الشخصية ؟

أن ما يعطيه هذا الحق ، أمور لا تواتينا نحن آحاد الناس العاديين ومئاتهم .

يعطيه هذا الحق ، انه أشد موهبة منا ، فى الانفعال والتصور والمعاناة .

يعطيه هذا الحق ، أنه أشد قدرة منا على التعبير ونقل التجربة من داخل ذاته ، الى داخل ذواتنا . ويعطيه هذا الحق ، شىء آخر ، شديد الخفاء شديد التأثير ، ذلك هو طلاوة النبرة العاطفية أو طلاوة

النبذة الفنية . فنحن نقرا له لانه يعطينا شيئا طازجا ، ليس من
المألوف ان يتكرر في واقع الحياة .

ولو احصينا عدد القصص القصيرة التي اذاعتها المطابع ، ونشرتها
النصحف ، وقدمتها الاذاعات ، نوجدنا هذا العدد يبلغ الملايين ذلك
ان القصة القصيرة ، ثمرة الطباعة اريد بها ان تخطف اهتمام القراء ،
واراد لها الادباء ان تشرى فنون الادب .

وما تزال تلك هي حالتها . فهناك قصص كثيرة ، لاتدخل دائرة
الادب ، وهناك قصص قليلة ، تعتبر من نماذج الادب الرفيع .



ولا اظن ان الكتابات الاولى لرجال مثل « زولا » و « لويس
استيفينسون » و « ادجار آلن بو » و « آرثر شفايتزر » و « اناتول
فرانس » قد وضعت غار الادب على جباههم عند ظهورها .

وما اظن ان رجلا مثل شارلز ديكنز كان يتعمد الادب ، حين
نشر الحلقات الاولى من رواياته في الصحف السيارة . لقد كان هذا
الفن ، اثناء القرن الماضي ، ينتزع لنفسه « اعتراف » الجمهور
بطلاوته ، ثم صار ينتزع لنفسه « اعتراف » النقاد ودارسي الادب
بقيمته . وقد حدث شيء شبيه بهذا ، في تاريخ القصة عندنا -
فدطابع القاهرة ، اخرجت للناس ، ترجمات لبعض الاعمال القصصية
اثناء النصف الثاني من القرن الماضي . وبعض الكتاب ، حاولوا ان
يقلدوا الادب الاوروبي ، فأنشئوا فصولا قصصية ، كانت تمتاز
بقلة العدد وقلة الحظ من المستوى الفني ، وكانت تمتاز - فضلا
عن هذا - بأنها متأثرة بالمقامات . وفي مطالع هذا القرن ، حاول
ابراهيم المويلحي ثم محمد المويلحي ، اداع هذا الفن الجديد ، لكنهما
لم ينجحا في فرضه على الحركة الادبية ، او الكتابة الصحفية عامة .
ثم ان اعتراف الدارسين بأدب القصة القصيرة ، يعود الى سنوات
ماضية . فليس من الاسراف ، اذن ، ان نقول ان عمر القصة القصيرة
في ادبنا ، لا يتجاوز حدود هذا القرن ، واذا تجاوزها - بشيء من
التعميم - فان يرتد كثيرا الى الوراء . وليس من الاسراف ، ان نقول

إن البحث في أدب القصة ونقدها ، بحث حديث بالثبة للدراسات
الادبية العربية .

غير أن حادثة هذا الفن لدينا ، تدعو الى التأمل في أنواعه ،
وتقدير متواه ، أكثر مما تدعو الى الاعراب عن نقط الضعف فيه .
ذلك أن حصادنا من القصة القصيرة يفرنا بأن نعقد المقارنات بين
النماذج الرفيعة منه ، والنماذج العالمية المعروفة .

لقد استطاع كتاب القصة ، قبل الحرب العالمية الثانية ، أن
يصلوا بها الى مستوى النضج في أحيان كثيرة . وأن يجذبوا اليها
اهتمام الباحثين الأجانب . واستطاع كتاب القصة بعد الحرب
العالمية الثانية ، أن يزيدوها عددا ، وأنواعا ، وأن يفحروا لها
الآفاق الجديدة .

* * *

وكان الجانب الاوفى من القصص ، يتناول حياة المدينة ، في شتى
صورها ، فالكاتب يختار موضوعه وأحداثه ، من جو الحضارة
الحديثة ، يصفى هذا كله أو يقدمه ، دون عناية بالصقل ، يختار
أبطاله من الطبقات العالية ، أو من غمار الناس ، لكنه لا يخرج - في
غالب امره - على دائرة من يقرأون له ، وكأنه يطبق القاعدة الصحفية
الأنورة ، والتي تقول ، أن خير الكتابات وأنجحها تتناول حياة
القراء .

لم يكن ثمة اتجاه واضح قوى ، الى حياة من لا يقرأون الكتب
والصحف ، ومن لا يقرءون القصص والادب .

كان من النادر ، أن يفرد كاتب صفحات مجموعته القصصية ،
للفلاحين على اطلاقهم ، أو للمفمورين الضائعين من الناس .

ولعل ميزة هذه المجموعة ، أنها تتحدث - على نحو من الانحاء -
عن حياة الفلاحين في بعض قرانا .

وهذه الميزة ، تعطيلها مكانة ، وتحملها مسؤولية .

وأما المكانة ، فهي تلك التى نريد أن نرى فيها ، كتاب قصة
عديدين ، يتأثرون حياة الفلاحين ، ويعترفون بالرابطة الروحية
والتوجدانية الكبيرة ، التى ينبغى أن تربط بين القرية وبين أبنائها من
المفكرين والفنانين .

وأما المسئولية فهي تلك التى تجعلنا ، نريد من الكاتب أن يحملنا
معه الى مستويات رفيعة من الفن ، حين يعالج حياة الشعب فى
المدينة أو حياة الفلاحين فى الريف .

فالادب الجيد ، لا يعترف بأواسط الامور .
هو لا يعترف بالملكات العادية والمواهب العادية .
ولهله فى هذا أن يتشدد غاية التشدد . فاما ان يقدم للادب
عملا متفردا ، نعجز عن انشائه نحن الناس العاديين ، أو يقدم عملا
عديا فينكره الادب أشد الإنكار وأقساه .

* * *

ولكن هذه المكانة ، لا تنال - فى العادة - اعتافا أو من أول
افتحام .

ان تاريخ الادب ، حافل ، بمحاولات كتاب الرواية والقصة ،
حين كان الواحد منهم يتم عمله القصصى ، ويدفع به الى غيره من
انتقاد والكتاب ، ثم يتلقاه بعد ذلك وقد اعترضوا عليه أشد
الاعتراض .

يحدثنا جوركى طويلا عن تجاربه الاولى وعن الفشل المتكرر
الذى لحق به ، وعن الطريق الشاق الذى سار فيه ، يخطئ
ويتعثر ، ثم يتعلم ، ويصلح من هذه الاخطاء .

والامر ذاته نلقاه فى صور مختلفة ، حين ندرس حياة كتاب
القصة فى القرنين الاخيرين . لقد كانت معاناة العمل الادبى مثقاة
على اكتاف الادباء الناشئين ، يواتيهم الحظ ، فيجدون من يرعاهم
وأخذ بأيديهم ويرشدهم أو يواتيهم سوء الطالع ، فيضيع من
اقدامهم الطريق ، ويشملهم النسيان .

وئهل مئات من كتاب القصة عندنا ذهبوا طى النسيان ، ولما
يسمع بهم أحد ، لان احدا لم يكن يمد ايهم يدا رحيمة حانية ،
وهيته ما لم تكن تعمد الى رعايتهم .
غير ان ظروف العمل الفنى ، فى بلادنا ، جاوزت ، تلك المرحلة
انسابقة ، الى مرحلة اخرى ، تمتاز بالرغبة فى النهوض الفكرى
والفنى . فهذه هى وزارة الثقافة تشجع الادباء الناشئين على أن
ينشروا انتاجهم الاول ، وفى يقينها ان النشر خير « وازع » فاما أن
يدفع بالكتاب الموهوب دفعة قوية الى الامام ، او يساعده على أن
يعرف « حجم ملكاته » فيترك الميدان لمن هو اكثر موعبة منه ،
واغزر تصورا ، واقدر تعبيراً ، وارسخ قدما .



ومجموعة « نساء فى القرية » التى نقدمها للقارئ ، ليست
اول ما يصل من انتاج المؤلف الى القراء .
لقد سبق لصاحبها أن اذاع فى الصحف اليومية ، قصا من
تأليفه . وسبق له ، أن نشر مقالات متفرقة .
وكاتب هذه المجموعة ، كما يبدو من سياقها ، متأثر بحياة
القرية ، هذا التأثر الذى يدعونا الى تقديره من ناحية والى تحذيره
من ناحية ثانية . فالامر الواضح ، انه يحدثنا عن حياة قرية بذاتها ،
أغلب الظن انها قريته هو ، ولعلنا ، نشعر اثناء قراءة المجموعة ،
بأن الكاتب ، أدخل « ذاته » فى سائر صفحاتها فجعل يخاطبنا بضمير
المتكلم كما حدث ذلك فى «السيارة الحمراء » او ساق الينا الحدث
النفسى ، بأسلوب الحوار الداخلى ، كما نرى هذا فى قصة « ليس
بالخبز وحده » و « فى ليلة واحدة » وهذا الاسلوب ، لا يفتقر
كثيراً عن أسلوب المتكلم المباشر ، عند تحليل الاثر النهائى للقصة .
ولعلنا نشعر ، الى ذلك ، أن الكاتب لم يوسع على نفسه ، كما كان
ينبغى أن يفعل ، فجعل بطلات قصصه ، دوائر حول ضمير المتكلم ،
فهذه « خالتى فهمية » فى قصة « السيارة الحمراء » ، فاذا انتقلنا
الى قصة « ليس بالخبز وحده » وجدناها وقد صارت « خالتى
حميدة » وعندما تنتقل الى قصة « تعاونية » نقرأ انها « خالتى
أم محمد » . وفى قصة « فاطمة العبيطة » نلاحظ انها « خالتى
عائشة » .

ولعل إحياء كلمة « خالتي » المتكررة ، أن يحقق أثرا مضادا ، لما يريد الكاتب . فالكاتب ، يريد - فيما نظن - أن يحول اليأس احساسه بحياة تلك النساء الفلاحات . . . ولكن القارئ - فيما نظن كذلك - يريد أن يعرف الإبطال والبطلات معرفة شخصية مباشرة ، ليس فيها وسطاء . ولعل الحوار الداخلي في قصة « في ليلة واحدة » وغيرها ، أن يحمل إلى القارئ الاحساس بثقافة المؤلف ، أكثر مما يحمل إليه من وجدان أبطال هذه القصص أو من حقيقة اللحظات النفسية التي يمرون بها .

وأما التحذير الذي يخطر لنا ، فهو التحذير من الرتابة . ذلك أن كثرة كثيرة من الأدباء الناشئين يطرقون موضوعات بعينها ولا يتحدثون آفاقا جديدة .

ولعلنا ، نحب ، أن نجد عند هؤلاء الأدباء ، ما نفتقده في الحياة الواقعية ، من تفرد .

* * *

تبقى بعد ذلك ملاحظة على « خطابية » الأسلوب ، فالذي يستخدم ضمير المتكلم أو المونولوج الداخلي يتعرض للإصابة بالرتابة الخطابية الجهرية .

واحساسنا ، أن بعض قصص المجموعة حافلة بهذه الرتابة . ولقد كان الكاتب ، يستطيع أن ينبج من هذه الرتابة ، لو أنه عمد إلى أشكال أخرى من الصياغة والتركيب الفني .

ومع هذا كله فالمجموعة الراهنة تستحق من القارئ التقدير والتأمل فهي تجربة كاتب ، جاء من القرية ، فلم يضع القرية وراء ظهره ، وتجربة أديب ، حاول - على نحو من الانحاء - أن يحل مشكلة الحوار بين الشخصيات الأدبية فاتجه كثيرا إلى صقل الالفاظ الدارجة وألبسها ثوبا فصيحاً . ولعل القارئ ، أن يضع هذا الجهد في الميزان ، ثم يحكم على جودة الحوار ومدى هذه الجودة .

والكاتب ، يعيش قصصه ، وقد نفجر له - في هذه المجموعة الأولى - أنه لم يتجاوز نطاق نفسه كثيرا ، يعطينا فنا قصصيا متنوع الأساليب متعدد الأشكال .

* * *

وإذا ظن القارئ أن وظيفة كاتب المقدمة ، هي أن يعطي « بطاقة تزكية » لكاتب المجموعة فما أباس حظ كاتب المقدمة .

المفروض في كتابة المقدمات ، ان يقدم صاحبها ، رأيا فيما اشتملت عليه المجموعة من قصص ، فاذا اثار هذا الرأي اهتماما او اثار نقاشا وجدلا ، او اثار سخطا واعراضا ، او اثار تقديرا وعناية فقد حقق الغاية منه .

ولست اضع القارئ ، في موضع التحكيم بل اضعه في موضع الاسترشاد . وانصح به بان يمر مروراً سريعاً بهذه المقدمة ، ويقرأ لنفسه قصص المجموعة ، فاذا اراد ان يتطلع رأي المقدمة ، فذلك من حقه ، واذا اراد ان يتفنى بما يرى هو فذلك من حقه . فالاصل في العمل الفني ، انه هو ذاته الثفصل والخور . واما آراء النقاد ، فاضواء ، تحاول الشرح والتقييم .

وفرق كبير بين الجوهر والضوء وبين المحور والدوائر .
وفرق بين أن تقيس المجموعة الى غيرها من المجموعات التي ينشرها الادباء الناشئون وبين أن تقارن بينها وبين الاعمال التي جادت بها ملكات الكتاب الجريين .

* * *

واذا كان لى أن ادعو الادباء الناشئين ، من كتاب القصة الى شىء فانى ادعوهم ، في غير تردد ، أن يتعرفوا الى الانتاج الادبي الرفيع في هذا الفن سواء هذه الآثار التي ظهرت باللغة العربية أو تلك التي اذيعت في اللغات العالمية الكبيرة . فموهبة التصور لا تكفى وحدها ، والرغبة في التعبير عن هذه الموهبة لا تكفى وحدها ، وطلاوة الاسلوب لا تكفى وحدها ، بل ينبغي أن يسيطر كاتب القصة على هذه الانحاء جميعا ، وأن يعمل عملاً دائماً من أجل تحقيق مستوى رفيع من « الخلق » وذلك بأن يتأمل الحياة ما استطاع ويتأمل النفس البشرية ما استطاع ويتأمل الاعمال الادبية الرفيعة ما وجد في نفسه ، وفي وقته ، وفي عزيمته ، القدرة على التأمل . ولا بد له ، من أن يجد هذه القدرة . فالقن لم يعد ، ومضة طارئة ، بل صار قوة خالقة لا تعرف الملل . وظروف الابداع الفنى الراهنة ، تحيط اذباءنا وفنانينا ، برعاية لم يكن سابقوهم يجدون مثلها ، ومن حقنا عندهم ، أن ننتظر منهم ، تحقيق مستوى ارفع ، ونتائج اكبر ، والارتفاع بتقاليد هذا الفن القصصى ، الذي أصبحت له الصدارة بين فنون أدبنا العربى الحديث .

رشدى صالح

السيارة الحمراء

منظر خالى فهيمة من الصور التى لاتبرح مخيلتى ، منظرها
وهى تجلس بعيداً عن منازل القرية المحترقة ، فى ظلام الليل وحولها
أطفالها الثلاثة الصغار ، اليتامى . كانت النيران قد اشتعلت فى منازل
القرية ، وساعدها القش الكثير الذى يتكدس فوق المنازل ورياح
الشتاء الباردة حتى أتت على كل شىء . وكانت سقوف المنازل
متآكلة سوداء يتصاعد منها الدخان ، والأبواب وقد اختفت تماماً
لترك أفواه البيوت فاعرة يظهر منها أثاث بسيط متآكل متفحم
كأنما هو أسنان متآكلة لعجوز فقير .

وانتشر الناس ، رجالا ونساء حول القرية المحترقة كأنما هي
جثة جريح في أحد الحوادث . واختلطت المواشى التي أخرجت
من المنازل سريعا بالآثاث الذي أمكن إنقاذه ... الخبز ...
والدقيق ... والأغطية وقطع من الأخشاب ... وأذرة ...

أما خالتي فهيمة فقد جلست بعيداً في ناحية وليس حولها شيء
من الآثاث والحبوب أو المواشى أوحى الخبز . لم تكن قد خرجت
من الحريق بشيء من هذا . كل ما استطاعت إنقاذه هو ...
أطفالها الثلاثة فقط ، أطفال صغار لم يتوقفوا عن البكاء والصراخ
منذ استيقظوا فزعين من نومهم . أما خالتي فهيمة فقد كانت تن
في انسحاق ثم تبدأ مرة واحدة في الصراخ ولطم وجهها بقوة ...

وتتجدد الأحزان القديمة كلها ... وتبكي المرأة زوجها
والأبناء الذين ماتوا لها من قبل ... بل وتتذكر أباهما الذي مات
وهي صغيرة فزداد لطماتها على وجهها قوة ...

أبدأ لا يبرح مخيلتي منظر المرأة وقد تمزقت ملابسها وهي
تبكي وتنوح وحولها أطفالها الثلاثة المفزوعين ...

تذكرت خالتي فهيمة فوراً وضجيج السيارة وقد بدأ محركها
يدور استعداداً للانطلاق يتضخم داخل جدران المبنى . ويبدو

أن السيارة كانت في عجلة من أمرها إذا كانت أصوات الرجال
تتردد وهم يسرعون كل بدوره إلى السيارة ، ورئيسهم يصدر
أوامره في كلمات متلاحقة موجزة .

وكان أحد الجنود قد وقف على باب المبنى لتنظيم خروج
السيارة وانتظامها مع حركة المرور المتلاحقة .

وكان المارة قد انتبهوا إلى الحركة غير العادية فتجمعوا سريعاً
حول المدخل ليشاهدوا كعادتهم هذا المنظر الذى لا يرونه كل يوم .
وكانت تعليقاتهم تتصاعد إعجاباً بالسرعة والنظام . . . وصرخ
طفل صغير ينبه أباه إلى جندى كان ينزل مسرعاً على عامود وسط
المبنى . . . وكان الطفل يعتقد أن الجندى قد وقع من الدور
العلوى . . .

وبعد لحظات . . . كانت السيارة قد أكملت استعدادها
وبدأت تتحرك ، ثم سرعان ما انطلقت من المبنى بما عليها من
سلام وخراطيم للياه ورجال أقوياء سمر الوجوه يرتدون ملابس
قائمة وعلى رؤوسهم خوذات نحاسية ضخمة وكأنما هم من فرسان
العصور الوسطى .

وتصاعدت أصوات من الجمهور المتجمع على جانبي المدخل ،

وقد أراد كل منهم أن يساهم في خروج السيارة سريعاً . كلهم كان يريد إفساح المرور للسيارة وكأنه جندي للهروب . وتوقفت السيارة قليلاً ودقات الجرس تتصاعد عالية منذرة بالخطر والعجلة ، ثم انطلقت مرة واحدة . وكانت السيارات المسارة في الطريق تميل إلى جانب حتى تفسح الطريق ، وركابها يدورون برؤوسهم ويتطلعون إلى السيارة الحمراء وكأنما سيعرفون من منظرها ما الذي حدث وأين ؟

وفجأة انطلق جندي من داخل المبنى وجرى مسرعاً خلف السيارة . إنه من القوة التي يجب أن تخرج معها ، ويبدو أن السيارة خرجت قبل الموعد المحدد لخروجها ولم تنتظره . كانت الحالة خطيرة وعاجلة جداً .

وتصاعدت أصوات الناس جميعاً في لهفة تنادى السيارة حتى تتوقف لتلتقط الجندي الذي كان يجري بكل قوته وبينه وبينها خطوات قليلة . ولم تهدء السيارة من سيرها بينما اندفع الجندي بجسده للأمام وأصوات الناس تشجيه وتنادى السيارة بقوة ولهفة .

ووجدتني أشارك الناس في النداء والصباح وقد انتابني حماس شديد ولفحت وجهي حرارة غير عادية . وكان الجمهور الواقف

قد اندمج كل أفرادها في بعضهم كأنما أصبحوا كتلة واحدة لها هدف واحد هو أن تهدى السيارة من سيرها حتى يستطيع الجندي أن يلحق بها .

كان أملنا جميعاً في ذلك الوقت هو أن يلحق الجندي ، جندي المطافيء ، بالسيارة الحمراء ، سيارة الحريق .

واندجحت في الصباح ، بينما تلاحقت الصور والذكريات تأخذ بتلايب عقلي وتجذبني بعيداً إلى الخلف ، إلى أعماق الذاكرة . . . عندما كنت طفلاً صغيراً في القرية .

في ذلك الشتاء الماضي البعيد وقد أجبر البرد القارس فلاحى القرية على الاختفاء في منازلهم مبكرين ، للاحتباء بدفء الفرن وضوئه من الهواء البارد الذى يتسلل إلى عظامهم ، ومن الظلام الذى كانت تختفى فيه القرية بأجمعها . في منتصف ذلك الليل انطلقت صفارة الحنفير مزعجة مستمرة كأنما هو طفل يلهو بلعبته الجديدة ولا يتركها . ولم تسكن الصفارة لتنتقل إلا في حادث سرقة أو قتل أو حريق .

وبدأت أبواب بعض الدور تفتح في تردد ثم في سرعة والرجال ينادون من خلفها ابراهيم الحنفير . . .

— ما الذى حدث ... يخرّب بيتك يا شيخ ... الدنيا برد ..

وبعضهم يصيح فى غضب :

— هل حمل أحد القرية وسرقها بأجمعها ؟ ... فى داهية ...

وجرى إبراهيم وهو ينفخ فى صفارته بقوة حتى وقف
على باب الحارة التى تشق القرية ثم أخذ يصيح :

— اطلع أنت وهو ... بسرعة ... كل واحد منكم ينام فى
بيته كالحریم بينما ييوت الناس تأكلها النار ... اطلع
ياندل من البيت ...

ولو أن ابراهيم سب أى من أهل القرية فى غير هذه الحال
لتصاعدت ألفاظ السباب من الجميع . لكنهم عندما سمعوا كلمة
النيران تساءلوا وهم يخرجون إلى ظاهر بيوتهم ، وبعضهم
يبدأ فى الجرى ...

— أين يا ابراهيم ... فىن يا ولد ...

— النار أكلت نصف عزبة الشيخ رجب وأتم نيام فى دفة
الفرن ...

وأُسرع الرجال يَجرون إلى خارج القرية وهم ينادون بعضهم البعض . كما أُسرعت النساء بحمل جرارهن وجميع الأواني التي يمكن أن يحمل فيها الماء من المصرف وانطلقن في الجرى خلف الرجال وصرخاتهن تدوى في ظلام الليل ، وتغطي على صفارة الخفير ، حتى ينتبه أهالى القرى المجاورة لما يحدث لجيرانهم . والناس لبعضهم على أى حال ، والذي ينجد جاره اليوم قد يحتاج هو للنجدة غداً . والحرائق كثيرة بين القرى يزيد في كثرتها أكوام القش والخطب التي تتكدس على سقوف المنازل وتلك المصاييح الصغيرة التي يستعملها أهل الريف في الإضاءة ، مجرد علبة من الصفيح لها شريط من القطن تصلح لإضاءة بيوت القرية .

وكننت أجرى مع الناس وأنكفى فوق كتل الطوب التي تملأ جسر المصرف ، والرجال جميعاً يَجرون ويتسابقون من جميع الجهات حتى يصلوا القنطرة الصغيرة المقامة فوق المصرف ثم يتجهون ناحية النار التي كانت تتصاعد في ظلام الليل وتبدو واضحة لعدة أميال ، كأنما هي شمس صغيرة ملتهبة تضيء ما حولها .

وكان كثير من أهل القرى المجاورة قد وصلوا إلى مكان الحريق وأقاموا صفّاً طويلاً بين المصرف وبين المنازل المشتعلة .

كانت المرأة تقف بجوار الرجل والحدث الصغير إلى جانب الرجل الكبير والأواني تنتقل فارغة ومملوءة بالمياه من يد لأخرى في لهفة . وتلقى المياه على النيران فتبهط قليلا ثم تعود للصعود ببطء ثم تزجر وهي تأكل كل الأخشاب في قرعة مزعجة .

وتجري النساء وعلى رؤوسهن الجرار ، وصراخهن مع ذلك لا يتوقف . ويتجمع خلق كثيرون ، من جميع القرى . وتسكون صفوف آدمية أخرى ، وتغرق المياه الأرض حتى يصعب السير فوقها كما تغرق الملابس حتى تلتصق بالأنفاذ والصدور والحركة مع ذلك دائمة سريعة في انتظام . لقد رأى الجميع هذا المنظر من قبل وشاركوا في مثل هذه العملية مرات ، وهم يأخذون موافقهم بلاد تردد .

وبعضهم قد تسلق جدران المنازل التي تأكلها النيران وأخذ يضرب النيران بعصاه حتى يحد من انتشارها ، بينما البعض الآخر أخذ يلقى فوقها بأكوام من التراب والطوب ، وآخرون انصرفوا إلى أهل بقية منازل القرية يخرجونهم إلى بعيد ثم يعودون إلى المشاة وإلى أثاث الفلاحين البسيط وخبزهم وحبوبهم .

كل هذا يجري في ضجة وهرج لا يمكن أن يحدث إلا في هذه

الحالة فقط . . . الصراخ يختلط بالكلمات والبكاء وصوت النيران والمياه والحيوانات . والجميع يطلبون المياه ، وهي أعلى شيء في ذلك الوقت . . . والنساء يصرخن والأطفال سيكون والحياة كلها قد أصابها كارثة مروعة .

* * *

وبعد ساعات من هذا الفزع الأكبر هدأت النيران شيئاً فشيئاً ثم ، وأخيراً غلبت على أمرها واختفت تماماً . كأنما هي وحش عاد إلى عرينه أو شيطان أعيد إلى القمقم .

وأخذ هذا الجمع الكبير يتجول بين الأطلال والخرائب التي كانت قرية من قبل وكأنهم أفراد جيش منهزم بعد المعركة . كانوا قد تغلبوا على عدوهم الأكبر ثم انصرفوا يبحثون عن خسارة كل منهم . منهم من فقد ابناً أو بنتاً ، والكثير منهم فقد كل أثاث منزله . . . والحبوب التي كان يعتمد عليها لطعامه طوال العام .

— من أين يأكل الشهور والأيام الطويلة ؟

— الحمد لله على كل حال .

— قضاء أخف من قضاء . . .

هكذا كانوا يتحدثون وهم يبحثون خسائر القرية المنكوبة ،
وكل منهم يستضيف أفراداً منهم في قريته ليحيا معه حتى يستطيع
التصرف في أمر حياته ، كأنما هي هجرة إسلامية جديدة .

أما خالتي فهيمة فقد رفضت كل العروض وأبت أن تتحرك
بأطفالها من جوار القرية . وتشبّثت خالتي فهيمة بأطفالها الثلاثة
الذين انضموا تحت جناحها مفزوعين . وعندما حضرت بعد كل
هذا ما كينة الإطفاء الصغيرة التي تعمل باليد وجد أفرادها خالتي
فهيمة جالسة كما هي .

✱ ✱ ✱

وترك الحريق ذكراه المريرة في قلوب الرجال والنساء ،
واضطربهم إلى سنوات من الشقاء والكدح لتعويض الخسارة .
أما الأطفال — وأنا منهم — فقد ترك لهم انطباعات عميقة من ذلك
الهول والفرع ، انطباعات لا يمكن أن تنسى .

وكانت صور الحريق تلك تتلاحق بسرعة في ذاكرتي ،
وجندى المطافئ يجرى خلف السيارة الحمراء ، والناس جميعاً ، وأنا

منهم يصبحون بأعلى أصواتهم في حرارة وكأنهم سيفقدون أعمارهم
لو لم يركب الجندي السيارة . وظلمت أصبح بقوة حتى بعد أن لحق
الجندي بالسيارة وهي تهديء من سيرها عند إشارة المرور القريبة .
كانت صورة خالتي فهيمة وهي تجلس في ظلام الليل وبرودته وحولها
أطفالها الصغار لا زالت في ذاكرتي . وكانت منازل القرية المحترقة
وأبواب الدور التي نآكلت وظهر خلفها ظلام مطبق ، والدخان
يتصاعد من كل مكان . . . كان كل هذا قد خرج من أعماقي بعد
هذه السنين الطويلة ، وكان يدفعني إلى الصراخ والنداء على السيارة
حتى بعد أن لحق بها الجندي الذاهب لآداء واجبه وإطفاء
الحريق .

* * *

وتغيرت الأحوال ، ولم يعد القش والخطب مكدياً على المنازل
كما كان في صباي ، وأصبح بالمركز سيارة للإطفاء ، لكن صورة
خالتي فهيمة في أسائها وحزنها وآلامها وضعفها لم يلحقها
أى تغير .



ليس بالخبز وحده!

— يخرب بيتك يا واد يا شرقاوى ، خمسة أرغفة ولم تشبع ،
ماذا جرى لك ؟ كل رغيف يخرج من الفرن تلتهمه وكأن بطنك
هذه لا تمتلئ . كأنك السيد البدوى الذى يقولون أنه كان يأكل
طعام مئة من الرجال . . . ولكن أين أنت من السيد البدوى .
ومن أين تجد طعام مئة رجل . . . يا شيخ حرام عليك !!
هل تجد ما يكفيك من طعام وأنت رجل واحد . . . وأملك
وأختك ؟ . . . إنك تجرى من هنا إلى هناك وتعمل من صباحك
إلى مساءك . . . وتقبل أى مقالة لحصد الأرز أو قلع حطب

القطن ليلا . . . في ظلام الليل والناس نيام والهدوء يسيطر على
الدنيا ولا يخرج على سلطانه إلا صوت الضفادع والصراصير . . .
حتى في هذا الجو تقبل العمل وتقوم به إلى الفجر لتنام ثم تستيقظ
بعد ساعة أو اثنتين لتمارس ما يمارسه الفلاحون من عمل . . . كل
هذا من أجل إطعام أمك وأختك هذه التي تصنع لك الخبز الآن .
أنظر . . . توقف عن التهام الخبز قليلا وانظر إليها . . . في جلستها
تلك أمام الفرن . . . إنها تلتقي بعض الحطب والقش في النيران . .
ثم تقترب من فوهة الفرن قليلا قليلا وهي تتراجع بوجهها إلى
الخلف خشية هذا اللهب المتصاعد . . . ثم تمديدها إلى آخرها . .
لتخرج أحد الأرغفة ، طرياً ، تتصاعد منه الحرارة . . . وتمديدها
به إليك صامتة في تضحية . . . وكأنها التي ستأكله وتستمتع بمذاقه
الطري الدافئ اللذيذ . . . ثم تعود إلى الإناء أمامها لتقطع جزءاً
من العجين تعالجه بين يديها ثم تنثني بشدة أمام الفرن . . . تمديدها
إلى نهايتها . . . وتبعد بوجهها عن النيران . . . امرأة حقيقية أختك
هذه يا ولديا شرقاوى . أجمل من كل نساء القرية . . . هل تقول
هذا الكلام لأنها أختك؟ والقرود في عين أمه غزال . . . كما يقولون .
أبدأ والله . . . أنظر . . . إنها أمامك . . . أول ما يظهر منها
خدودها التي أصبحت في لون الورد من حرارة الفرن . . . وجسمها

هذا كله وهى تجلس على أطراف أصابعها وتتثنى يمينا ويسارا وقد انصرف انتباهها كله إلى الخبز الذى تصنعه . . ومع هذا لم يتقدم لها أحد . . . كلهم يعجب بجمالها وقوامها وكلهم يهفو إليها ويتقرب منها ويحاول أن يكون بجانبها عند ما تقف مع الأنفار فى الحقل .

. . . ابنة حلال حقيقة أختك هذه يا شرقاوى . . . كأنها رجل . . . لا أحد يجروء على أن يقول لها كلمة كده أو كده . . . ولكن لم يتقدم لها أحد بعد . . . إنها فقيرة لا تملك شيئا . . . وأنت شقيقها . . . ولى أمرها . . . الذى ستقبض مهرها . . . وتجهز لها . . . فقير أيضا . . . لا تملك شيئا . . . من يتقدم لك ؟ الناس جميعاً تبحث عن صاحب القروش . . . الذى يقبض المهر ويجهز بأكثر منه . . . هل فى مقدورك أنت أن تفعل هذا . . . ؟

يا شيخ . . . النهم أرغفة الخبز ولا تخبر أحداً بما يدور فى عقلك الآن . . . ولها الله أختك هذه يتولاها برحمته .

ولكن لم الخجل ؟ الكل يعرف أنك فقير . هل الفقر عيب ؟ إنك رجل بين الرجال . . . تعمل وتسكدح . . . ولكن ماذا تفعل وكل هذا العمل والسكدح لا يرفعك درجة واحدة عن مرتبة الفقراء . كل ما تملكه هو . . . هو هذه الأذرع التى ترفع الفأس وتمسك المحراث وتبذر الحب . . .

لك يوم يا بنى ... من يعرف ... يقولون أنه سيأتى يوم
على الفلاح يصبح فيه أحسن مما هو الآن ... متعلم .. نظيف ..
غنى ... متى يكون هذا يا شرقاوى ؟ وهل يمكن أن يحدث هذا
حقيقة ... الله قدير على كل شىء يا بنى .. الله ؟ نعم . إنه يحيى
العظام وهى رميم . لكن الله لم يغير حال الفلاحين منذ مئات
السنين ... !! هل سيفعل الآن ؟

تغيير الأحوال يجب أن يقوم به الناس يا شرقاوى ...
هكذا يقول سيدنا الشيخ أيضاً ... إنك لا تذكر كلماته لأنها ضخمة
كبيرة ... آه ... ماذا يقول ... ؟ أعصر مخك يا واد يمكن
تذكر ... أبداً ... غير ممكن ... إنه مخ لا يتغذى إلا على الخبز ...
مخ مظل يا شرقاوى ... لو كان يأكل بطاطس ولحم وفراخ
كان زمانه فهم الدنيا كلها ... العالم كله والذى خلقك ... ذنبه
إليه المخ ... ؟ النبات من غير سماد ينمو ضعيفاً أصفرأ ...
على قد لحافك يا بنى ... لكن من يدري قد يأتى اليوم الذى
يتحدثون عنه ... يوم الفلاح ...

الرغيف اقترب من النهاية ... على مهلك يا شرقاوى ...
لقمة .. لقمة ... ما الذى حدث لك يا ولد ... ؟ تأكل وكأنه
آخر زادك .. تلهم نصف الرغيف مرة واحدة ... يجب

أن تأكل بذوق كما يأكل الناس جميعاً... بل يجب أن تتوقف
عن الأكل... يكفى ما دخل بطنك... أحتك هذه التي تصنع
الخبز لم تذق طعمه منذ الصباح... إنها تريد أن تملأ بطنك أنت...
وبطنك لا تريد أن تمتلئ... وأملك... قد غلب عليها النوم بجوار
الفرن أيضاً... جلست تنتظر حتى تكسفى أنت ثم تأكل...
ولكنك لا تشبع... كل همك فى بطنك... لا تفكر إلا فيه.
لكن ماذا تفعل يا واد يا شرقاوى...؟ ماذا أخذت من الحياة؟
حتى اللقمة لا تأكلها...؟ ولقمة إيه؟! لقمة خبز فقط...!!
من أجل هذا تلتهم الرغيف بعد الرغيف... الملح لا ينتهى، قليل
منه يكفى... أما الخبز فأرغفته تدخل بطنك الواحد بعد الآخر...
لماذا تقول هذا الكلام؟ أتخجل لأنك تمد يدك لتتناول الرغيف
السادس من عائشة؟ لكن لم الخجل؟ هل هذا شيء جديد...
كل يوم تأكل أربعة أرغفة فى الصباح وخمسة عند الظهر ومثلهم
فى المساء... إنك تريد أن تملأ بطنك فقط... هذا كل ما تريده
من الحياة...

واليوم، الخبز دافئ طرى لذيق... يؤكل وحده بلا ملح
ولا بصل... وأملك هذه النائمة تقول دائماً كلما رأتك تلتهم أرغفة
الخبز... إذا حلا زادك فالتهمه كله... إلتهم يا ولد أرغفة
الخبز... بطنك فارغ كأن لم يدخله شيء... وأنت لا تجد فى الحياة

شيئاً سوى الخبز... حتى الزواج لم تدخل دنياه بعد... لزوجته
ولا ولد... وحيد كأنك شجرة منفردة عند ساقية مهجورة.

ولكنك عرفت المودة والرحمة يا شرقاوى... ناعسة بنت
عمك خليل... كنت تشعر نحوها بميل... كنت تتلهف على
رؤياها... كنت تشعر بشيء لا يمكن وصفه... ولكنه هو
المودة والرحمة... لا بد أنها المودة بين الرجل والمرأة التي تحدث
عنها الله...

لكنها تزوجت يا شرقاوى... يخرب بيتك يا شيخ...
أكنت تريد الزواج من ابنة عمك خليل أيضاً؟ مرة واحدة...
من أنت؟ ومن تكون بين الرجال؟ لا عندك فدان ولا بقرة
ولا جنهات... بماذا تتزوجها؟ بيدك الفارغتين... حتى الخبز
لا يوجد عندك الكفاية منه... الرغبة يخرج من القرن إلى فك
مباشرة... وهناك أفواه أخرى تنتظره بلهفة... وأمك أعياها
انتظار رغبة يتبقى منك فسقطت إعياء وغلب عليها النوم...

لماذا لم تترك لها رغبة تأكله يا جاحد... ألا تعرف
فضل أمك...؟ كان يجب أن تأكل هي أولاً... ولكنها رفضت
يا شرقاوى ماذا تفعل...؟ أقسمت عليها، وأقسمت... ولكنها
ترفض... دائماً... إنها أمك يا ولد... وماذا تعرف أنت

عن قلوب الأمهات...؟ تجوع لنا كل أنت... هل رأيت من يفعل
هذا غير أمك؟ ربنا يقدرك ويعطيك من أجل هذه الأم...
ماذا تفعل لها يا شرقاوى لو فتح الله عليك...؟ ماذا تفعل لأمك
هذه...؟ كيف تجزيها...؟ كنت أجعلها ترتدى حرير وتأكل
اللحم وتعيش أحسن من أى امرأة فى القرية... ولكنك مغلول
اليدى يا شرقاوى... أى والله... مجرد أفكار لا تستطيع
تحقيقها... هكذا تردد لنفسك دائماً ولكنك لم تفعل شيئاً
لأمك، أو لأختك هذه التى تصهر نفسها أمام القرن من أجلك...
ماذا تفعل يا بنى...؟ تريد أن تفعل وأن تفعل... لكن يدك
قصيرة... حاجة تغىظ!!!

* * *

سبعة أرغفة قضيت عليهم يا فجعان ولم تشبع بعد!.. بطنك
كله دود... ضرورى كله دود... وإلا أين يذهب كل هذا
الطعام... إضحك يا شرقاوى... إضحك... من كام يوم كان
عند العمدة ضيوف من مصر... وكنت تقف فى خدمتهم...
ووضعت أمام كل منهم رغيفاً واحداً... أما أنت...؟
الله يخرب بيتك يا شيخ... سبعة!!
لكن... أيوه يا واد يا شرقاوى... أنت على حق...

ضيوف مصر كان قدامهم حاجات... وحاجات... ديوك رومي..
وحمام... وفراخ... وحاجات كثير يا واد... حاجات عمرك
ما سمعت إسمها ولا رأيتهـا بعينك... لما ذا يملأون بطونهم
بالخبز...؟ والحاجات الحلوة من يأكلها؟ أنت يا غشيم...؟!
حتى في الأكل لا تعرف الطيب من الخبيث...

لكن أين هو الطيب... ومتى وجدته ولم آكله...! أنا لا أجد
إلا هذا الخبيث... استغفر الله... العيش... هل وجدت
غيره منذ أن عرفت الدنيا؟! الحمد لله... الواحد يقبل يده
ظهوراً لبطن... إنه نعمة ربنا... وهناك من لا يجده...
وتكذب ليه يا شرقاوى... أنت أيضاً لا تجده أحياناً...
واليوم... هذا اليوم نفسه... أمك وأختك لم تذوقا طعم
الخبز منذ الصباح... كن صريحاً لم يكن في منزلكم رغيفاً منذ
الصباح... ولهذا تصنع أختك الخبز ليلاً... وأمك ترقد
بجوعها هناك... كان معك عشرة قروش... أجرة الأمس،
والعشرة قروش لا تشتري قمحاً ولا أذرة...

واليوم اشتغلت بعشرة أيضاً واشتريت القمح ثم ذهبت به
أختك إلى ما كينة الطحين وعادت لتصنع خبزها ليلاً...

الكذب خيبة يا بني... وعلى من تكذب... على نفسك

أم على ربنا ... القروش التي تكسبها تذهب من فورها إلى الخبز..
لا شيء يبقى لثاني يوم... والمسألة ليست صعبة... إنها حاسبة
بسيطة سهلة... كل خمسة أيام عمل يمكنك أن تشتري بشمها
كيلة من القمح... ولكنكم أنتم الثلاثة تأكلون ما يزيد على الكيلة
أنت وحدك تأكلها... وخبز القمح طرى لذيد... إحمد
ربك لأنك تجده... أما الأذرة استغفر الله... ثمها أرخص
صحيح... لكن كيف تأكل خبزها وحده... بلا أى طعام
بجانبه... إنه خبز خشن جاف يقف في الحلق...

ماذا تقول؟ خبزها يقف في الحلق؟ في حلقك أنت؟ يالك
من كاذب مخادع. وهل يقف شيء في حلقك هذا الذى يبتلع الدنيا
بأكملها... ألا تخجل؟... سبعة أرغفة... وفي يدك
الثامن... وما زلت تأكل... إعطه لأختك يا فجعان إنها أيضاً
لم تأكل... كل همها أن تأكل أنت وتملاً بطنك... إنها ترفض
ولكن يجب أن تأكل... إغضب منها... أصرخ فيها حتى تأكله
لتسكت بطنها هى أيضاً... لا تقبل منها هذا الرفض...
إنها تفعل كل هذا من أجلك... حتى تأكل أنت... إنها تعرف
أنك لن تشبع قبل ثمانية أرغفة... لكن لا... يجب
أن تأكل هى أيضاً... أنت تصرخ فيها لأسباب تافهة...
أصرخ فيها الآن حتى تأكل... قل لها إنك شبعت... اعطها

الرجيف . . . نعم هكذا . . . شاطر يا ولد . . . هكذا يجب أن
تفعل معها . . . من يدري يا شرقاوى . . . عسى أن يجعل ربها
حظها حسناً . . . يرسل لها ابن الحلال الذى يعوضها عن حياتها
الشاقة معك . . . ربك يسمع يا بنى . . . إنهض . . . إنهض
لترقظ أملك أيضاً . . . لا تدعها على جوعها حتى الصباح . . .
وهل ينام الجائع؟ . . . قول لنفسك يا شيخ . . . أوقظها . . .
بخفة يا ولد . . . نادى عليها . . . ها هى تستيقظ . . . لم تكن
نائمة . . . الجائع لا ينام . . . كانت تدعى النوم فقط لتترك لك
الخبز . . . أفعال أمهات يا بنى . . . ان تجزيها مهما فعلت
يا شرقاوى . . . تبقيان على الجوع لتأكل أنت؟ . . . من يدري
يا بنى . . . قد يأتى يوم لا تجوعان فيه أبداً . . . قد يأتى يوم لا يجوع
فيه أحد أبداً . . . وقد يأتى اليوم الذى تجدون فيه طعاماً كثيراً
مختلفاً ألوانه . . . إلى جانب الخبز . . .

سيجىء كل هذا يا شرقاوى . . . فى أعماقك هاتف قوى يجعلك
مطمئناً إلى مجيئه . . . فى ذلك اليوم لن تعيشوا على الخبز وحده . .
بل لن يحيا إنسان قط على الخبز وحده .

تعاونية

عندما يصفو الجو ويرق النسيم وتأخذ إناث العصفير
والطيور في مداعبة الذكور ، وعندما يزداد هدوء الحياة وتخف
حدة الشمس تأخذ خالتي حميدة الجاموسة لنزهتها اليومية . وكأن
جاموسة خالتي حميدة هذه كلبة صغيرة مرفهة لأحد الأثرياء ، أو كأنها
عروس جديدة في شهر عسل دائم يخرج بها زوجها كل يوم للنزهة
والترويح عن النفس .

غالية حقاً جاموسة خالتي حميدة هذه ، حتى إنها لو خيرت

بينها وبين عشر سنوات غالية من عمرها لتنازلت على الفور عن جزء كبير مما بقى لها من عمر على أن تبقى لها الجاموسة ...

حقيقة إن الحيوانات من أمثال جاموسة خالتي حميدة غالية عزيزة على أصحابها من الفلاحين ، إنها رأس مالهم الوحيد ، وعدتهم للزراعة ، وبغيرها لن يكون الفلاح سوى أجير يأكل من يده لقمه ، رغيف يوم بيوم ... يجد العمل أياماً ويتعطل بجانب جدران منزله أياماً أخرى ... لن يصبح حر نفسه أبداً ، ولن يصبح صاحب عمل مستقل ... لن يأمنه أحد على فدانين من الأرض يؤجره إياهما ... الجاموسة والبقرة هما حياة الفلاح ، كلهم يعرف هذا ... ومع ذلك لجاموسة خالتي حميدة أغلى من كل حيوانات العالم ... وأعز عليها من عينيها ...

وتسحب خالتي حميدة جاموستها من حبلها وتسير متمهلة ناظرة أمامها في خط مستقيم لا تحدث أحداً ولا يحدثها أحد . لا تلقى نجبة على رجل أو امرأة ... وكلما مرت على إنسان تمتمت من بين شفيتها ...

— الله أكبر ... من شر حاسد إذا حسد ... الله أكبر ...

وهي تدرك أن زينب زوجة عبد اللطيف عينيها صفراء ، تحسد

كل ما تراه وتجلب له النجس ألم تحسد خروف ابراهيم حتى طلب
السكين وذبحوه...؟ وبقرة أحمد أبو علي...؟ وزراعة عبد الجيد...؟
وتزداد متممة خالتي حميدة وكأنما تقيم حول جاموستها ستاراً حديدياً
من الكلمات المقدسة ترد عنده نظرات زينب الصفراء ولا تؤثر
في العزيزة الغالية ... وقد لا تستطيع خالتي حميدة كتمان ما يملؤها
من انفعالات فتصيح في زينب بين الجد والضحك ...

— عينك يا زينب ... الله أكبر منك ...

فتضحك زينب عالياً — والجو ساكن ولا أحد من الرجال
يمر في مثل هذا الوقت — وتضحك حتى تكاد تستلقي على ظهرها
وهي تردد ...

— ومن يحسد هذه المعزة ؟ .

ثم تضيف ساخرة كأنما تطمئن خالتي حميدة ...

— خدعوكي عندما قالوا إنها جاموسة ...

وتضحك خالتي حميدة وتسير فرحة مسرورة ... إن هذه
السخرية ان تضر الجاموسة ... إن الحسد والحقد والغيرة وتبنى
الأذى أشياء أخرى غير هذه السخرية التي تنطلق من شفقي زينب ...

وعندما تخرج إلى الهواء الطلق بعيداً عن بيوت القرية تلقى خالتي حميدة جبل الجاموسة فوق ظهرها وتركها ترعى كما تشاء على جسر الترعة أو إحدى القنوات الجانبية التي تخترق الحقول ... وتسير خالتي حميدة خلف الجاموسة ، تبطئ عندما تبطئ ، تبطئ عندما تبطئ ، وتسرع عندما تسرع ، وعندما ترى خالتي حميدة قبضة من الحشائش الخضراء الطرية بعيدة عن متناول الجاموسة تقفز في طلبها أو تخوض مياه القناة وتجتثها من جذورها ثم تخلصها مما يعلق بها من الطين وتقدمها فوق راحة يدها فرحة سعيدة ... ولا تزال يدها ممدودة حتى تأتي الجاموسة على جميع الأعواد الخضراء ... كأنما كانت حميدة تعمل خادمة وأكثر ... لهذه الجاموسة ...

أبدأ ، لا تفعل خالتي حميدة هذا مع ابنتها الصغيرة فتحية . البنت يتيمة ، مات والدها منذ سنوات ، وتركها وأمها — حميدة — وحيدتين يجاهدان يوماً هنا ويوماً هناك ، حتى استطاعتا بعد سنوات من الجهد ومن تربية الفراخ والدواجن أن تشتريا معزة أخرى ... سنوات طويلة من الكفاح اشترت بعدها خالتي حميدة جاموسها العزيزة هذه ... عجلة صغيرة قامت على تربيتها حتى كبرت وأصبحت جاموسة .

وتكاد الشمس تختفي ، ويعود الفلاحون من حقولهم وحولهم

وخلفهم الحير والجاموس والبقر ... فتندج خالتي حميدة بين
صفوفهم تسير معهم تجاه مباني القرية وقد امتلأت بالفرح
والسعادة .. ويزيدها سعادة أن يحدثها أحد عن الجاموسة أو يبدى
ملاحظة عنها ... إنها لم تأكل اليوم ... أو أن في حلقها شوك
يجب نزع حتى تستطيع الأكل ... أو لا تجعلها تشرب من مياه
المصرف لأنها ضارة بها ...

وتدخل الجاموسة إلى دار خالتي حميدة فتجد عشاءها حاضر آ
أمامها ... كوماً من الحشيش الأخضر تمد رأسها إليه بين الفينة
والأخرى ...

كل حياتها تدور حول الجاموسة ... وكأنما تعيش خالتي حميدة
من أجلها ... وفي ظلام الليل وقد نام الجميع - حتى الجن
والعفاريت - تنهض خالتي حميدة من رقتها وترفع جسدها فوق
مرفقيها ثم تنصت . فإذا لم تسمع صوت الجاموسة تجتر طعامها
قامت متلهفة حتى تصل إليها وتطمئن قلبها ...

* * *

وكان مرض الجاموسة أكبر صدمة توجه لخالتي حميدة ،
كل آمالها ، الضوء الوحيد في حياتها يكاد يخبث ويتلاشى ... كأنما

كانت هذه الجاموسة مصنعةً ضخماً يكاد يهدم أو شركة كبرى
برأس مال ضخمة توشك على الإفلاس ، أو عشرات من الأفدنة
سيطغى عليها البحر ، وكل برغوث على قدر دمه ... كما يقولون ...
في اليوم الأول لم تأكل الجاموسة شيئاً ... رفضت الطعام
وعندما حاولت خالتي حميدة أن تطعمها بيدها وتضع الطعام داخل
فمها لفظته في سأم ...

وفي اليوم التالي كانت ترقد على جانبها منهكة القوى وأنفاسها
تردد عالية في صعوبة ... كأنها هناك جبل يحطم فوق صدرها .
وحاولت خالتي حميدة ... أن تطعمها ... أن تسقيها ...
أن تعينها على النهوض ... ولكن ... ؟

وحضر الكثير من أهل القرية ليروا ما الخبر . وكثير منهم
لم يكن ليحضر لو أن المريضة كانت خالتي حميدة نفسها ... ولكن
المال غالى ... وروح الفلاح في جاموسته أو بقرته ...
وكلهم يعرفون كل شيء عن هذه الأمراض التي تصيب حيواناتهم
ويعرفون كيف يعالجونها ... وتسمع خالتي حميدة وتنفذ ما يقوله
هذا وذاك ... ثم تجرى في الصباح الباكر إلى القرية المجاورة لتتضرع
« عمى حسين ، الذي يفهم في هذا الأمر أكثر من غيره .

وفحص « عمى حسين ، ويدقق ثم يجلس بجانب الحائط ويخرج

علبة صفيح ليصنع من محتوياتها سيجارة رفيعة لا تكاد ترى ...
وأخيراً يصدر القرار ... يجب أن تكوى الجاموسة في أسفل
عنقها .

وتشعل النيران من الروث وتوضع فيها المناجل ... والرجال
كثيرون ، يجلسون حول النيران ، وعمى حسين والجاموسة ...
وعندما تتوهج المناجل يحضرون حبلاً يقيدون به أرجل الجاموسة ،
من خلاف ويمسك أحدهم برأسها بينما يجثم آخر فوق جانبها ...
وآخر عند مؤخرتها ... ويمسك عمى حسين قطعاً من الخرق
يلفها فوق يده ثم يتناول أحد المناجل ... وعندما يقترب من لحم
الجاموسة تقفز تلك من الوهج المتقد قبل أن يصلها وقد اهتدت
بغريزتها إلى مايراد بها .. ويجثم الرجال فوقها ... ويزداد عددهم ...
ويحترق الشعر الأسود ثم يتغل الحديد المحمى في لحم العنق
ويتصاعد دخان ... ورائحة نفاذة ...

ويتناول «عمى» حسين منجلاً آخر ... وغيره ... ورابع ...
فالكى يجب أن ينضج ، يجب أن يتغل المنجل المحمى في اللحم
حتى يكون ذا فائدة ... وحتى لا يتقيح ويضر الجاموسة ...
ولكن هباء ... كل هذه الجهود هباء ... والعلاج بأجمعه ، وهو
كثير لم يستطع رد القضاء ... حتى دموع خالتي حميدة المسكينة

ولوعتها لم يلن لها قلب السماء... ولم ترفيه نأمة رحمة... وتصرخ...
لم ياربى؟ ماذا فعلت؟ وكأنها — خالتي حميدة — تعتقد أن البلاء
لا يكون إلا عقاباً للذنب...

— ولكن أنت يامن لا تستطيعين إيداء بعوضة ماذا فعلت؟
هكذا تفكر من بين دموعها.

وتعود للصراخ والبكاء... وتبكي فتحة الصغيرة بجوارها،
ولكن.... ماذا أفاد الذين بكوا من قبل؟

ويصبح بعض الرجال:

— أوقني هذا البكاء... واحمدى الله أننا استطعنا ذبحها قبل
أن تموت...

— قضاء أخف من قضاء يا خالتي حميدة...

— ربنا يعوضك خيراً منها...

وتصرخ في لوعة... من أين؟ هل يوجد الجاهوس منطلقاً
على جسور الترع؟
ويتداولون...

— يجب أن يسرع أحد لإحضار جزارين من المركز
ومن بليس.

ويقول من ذاق هذا الموقف من قبل ...

— سيحاولون انتهاز الفرصة ... لن يقدم أحدهم ثمناً
جزياً ... وقد يتفوقون مع بعضهم ويتقدمون بسعر واحد ...
ثم يقتسمونها فيما بينهم .

— يعني موت وخراب ديار؟ ...

— أكثر ...

ولكنهم يضررون الجزارين ... ويتناقشون ويشربون معهم
أكواب الشاي ... ويتناقشون ... كل بكلمة ... والحديث
لا ينتهى ... وعشرة جنهات لا تصلح أبداً ثمناً للجاموسة ...
إن بها ما لا يقل عن قطارين ونصف من اللحم ... غير أشياء
أخرى تباع ... هذا حرام ... حرام عليكم يا ناس ... هذا
مال امرأة مسكينة وفتاة يتيمة ...

ولكن من يسمع؟ كل يريد انتهاز الفرصة ، وما الحياة سوى
مجموعة من الفرص ينتهزها الأذكياء .

ولكنهم يدعون الطيبة والرحمة ... ثم يزيدون ثمنهم خمسين
قرشاً ...

ويغضب الرجال ويصيحون ويتحدثون ...

وأخيراً ، يحتنبون وحدهم — رجال القرية — ويتهامون .
ثم ينادون على بعض الغائبين . . . من منازلهم أو من الحقول
والجميع يومئون برؤوسهم موافقين . . . وتسرع بعض الأيدي
إلى الجيوب الداخلية لتخرج محفظة كبيرة يعلبها صاحبها ليفرغ
كل ما فيها . . . وآخرون يسرعون إلى منازلهم . . . وغيرهم . . .
يبحثون عن يقرضهم من رجال أو نساء القرية . . .
ويعودون إلى مجلسهم من جديد . . .

— لن نبيع الجاموسة . . .

وينظر الجزارون إلى بعضهم البعض . . .

— وماذا ستفعلون بها . . ؟ تلقون بها للكلاب . . ؟

— لا داعي لهذا الكلام سنشتريها نحن . . .

وتتوقف دموع خالتي حميدة ثم ترفع رأسها وتحقق في الرجال
واحداً بعد الآخر . . . ولكن لا أحد منهم يقابلها بنظراته ،
كلهم ينظرون إلى الأرض أو يحولون وجوههم بعيداً عنها ، كأنما
يتشاغلون عما هم فيه . . . وتدرك ما اتفقوا عليه . . .

فقد حدث مثله في مرات كثيرة سابقة . . .

ويعيد الجزارون سؤالهم ، يوجهونه إليها :

— ماذا قررت ؟

وتنفض خالتي حميدة يدها :

— الجاموسة ملكهم يتصرفوا فيها كما يشاءون ... ليس لي
كأفة في حضورهم ...

ثم تنخرط مرة أخرى في البكاء ...

إنها من أهل القرية وتعرف ما اتفقوا عليه دون أن
يخبروها ... سيدشرون الجاموسة وسيدفون لها أكثر مما عرض
الجزارون ... من يدري ربما عشرون أو خمسة وعشرون جنباً ...
كل منهم سيدفع جزءاً من الثمن ويقتسم جزءاً من اللحم لأطفاله .

هذه دائماً نهاية الأزمة ... والناس لبعضهم ... ستتوزع
المصيبة ويخف أثرها ... سيأكل أطفالهم ثريداً ولحماً في عشايتهم
ثم ينامون سعداء وقد امتلأت منهم البطون ... سيرقدون حتى
بدون أن يغسلوا أيديهم ... كأنما لا يريدون أن يضيع أثر اللحم .
والمبلغ الذي يدفعونه كل مرة يزيد كثيراً عما كان يمكن أن
يقدمه الجزارون ، أولاد السوق ... وهكذا تخف المصيبة
بتعاونهم .

وعندما يحملون إليها أوراق النقد تبكي خالتي حميدة بحرقة
وعاطفة ، مثلما بكيت عندما مات أبوها وزوجها ... وينهرها
أحدهم في شدة مصطنعة :

— لم البكاء .. سنذهب سوياً يوم السوق لنشترى لك عجلة
وبعد عدة شهور تصبح جاموسة كبيرة أحسن مما كان عندك .
ويردد جاره .

— الله يعطى ، يأخذ ... وهو عليه العوض .
ولا تتوقف دموع المرأة وتعود لذكر أبيها وزوجها ...
— ماذا كان سيفعل أبوك أو زوجك ... ؟ هل كان فى
استطاعتهما دفع القضاء ؟
— أبداً ...

هكذا ترد خاتى حميدة ، وقد عاودها بعض اطمئنانها القديم
وأخذت رويداً ، رويداً ، تشعر بالدفء الذى جلبه الرجال إلى
دارها بصدق عواطفهم ومشاركتهم ... كأنها لم تفقد أحداً من
أهلها ... وبعد أسبرع سيكون عندها جاموسة صغيرة .

وستعود إلى سحبا عصر كل يوم ، وقد رقت النسيم وخفت
حدة الشمس لتأكل طعامها الأخضر ، من أعواد الحشائش الطرية
وعند الغروب ستندمج فى موكب الفلاحين وهم يسحبون مواشيهم
ويتجهون إلى مباني القرية ...

ويشرق الأمل ثانية فى حياة خاتى حميدة .

خالتى أم محمل

سبعة وعشرون عاما طويلة مضت بما فيها من أيام وأسابيع ،
شتاء وصيف وخريف ، وخالتى أم محمد تقوم بتربية المحروس
على شبابه ، ابنها محمد . ولو أن خالتى أم محمد تربي ابنها كما يفعل
أهل القرية جميعاً مع أبنائهم لما أرهقت نفسها كل هذا الإرهاق
ولما حملت نفسها كل هذا العبء . فهى — إن استطاعت —
تريد أن تقوم عنه بكل عمل وأن تجنبه كل تعب وأن تدفع عنه
السوء والضرر بكل ما أوتيت من جهد . ولو إنها استطاعت أن تقطع
رغيف الخبز وتلقمه إياه لقمة بعد أخرى لما توانت أو تكاسلت .

إنه الابن الوحيد الذى تبقى لها من اثني عشر بطناً ، صيدان وبنات ،
كلهم ماتوا وطردتهم أرض الجبانة الكبيرة التى ابتلعت كل من
مات من أهل القرية . حتى أن خالتي أم محمد كثيراً ما يختلط عليها
الامر في الأعياد والمواسم التى يجب أن يقرأ فيها القرآن على روح
الأموات ، كثيراً ما اختلط عليها الامر وهى تعطى سيدنا قرش
تعريفة أو فطيرة ليقرأ على روح هذا أو على روح هذه من الأبناء
والفتيات الذين ماتوا . . . فى سن عشرة أو خمسة أو حتى فى سن
الرضاعة ، نفيدة ومنيرة وخضرة وعليوه وإبراهيم و خليل
وغيرهم . . .

أما محمد ، ابن خالتي أم محمد ، الوحيد الذى عاش ، فلم يمش هكذا
بسهولة . وكان من الممكن أن يحدث له ما حدث لإخوته من قبل
وتطويه الجبانة الكبيرة التى لا تمتلئ والتى تبحث دوماعن المزيد .
وكأنما أرض جبانة القرية هذه وحش كبير لا يشبع ولا يرد ما يلقى
فى فمه الضخم . وكأنما ينتابه جوع لا يشبعه آلاف الضحايا .

ولكنه عاش ، محمد ، لأن أمه حملته فوق ذراعيها وهو بعد
رضيع وزارت به المشايخ وأولياء الله الصالحين ، السيد البدوى
والحسين وستنازينب ومشايخ آخرين كثيرين ، أصغر من هؤلاء
الأقطاب ، ولكنها ذهبت إليهم جميعاً ، وكاه بركة ، لعل مجهودهم

جميعاً يتجمع ويتكتل ويقدر على مواجهة هذا الوحش الضخم الذى التهم أبناءها السابقين .

وعندما مات عمى عبد اللطيف ، زوجها ، بعد عمر طويل ، لم تحزن كثيراً ، وكأنها حمت ربها لأنه استبدل زوجها بابنها الوحيد . لقد بكت خالتى أم محمد زوجها ولطمت خدودها وشقت حللها حزناً على زوجها ، على عشرة العمر الطويل بما فيه من أيام مرة... وحلوة . ولكن لو أن الموت سار فى طريقه الطبيعى واختار محمداً . . . فلا يمكن تصور ما كان يحدث لها ، خالتى أم محمد . من يدري ؟ ربما كانت قد دفنت نفسها بالحياة فى الجبانة معه ، وربما كانت قد خنقت نفسها بيديها أو ألقت بنفسها فى المصرف الكبير . لم تكن لتطيق الحياة يوماً واحداً بدونه — إنه ذخيرة العمر كله ، لم يبق غيره . . . يارب .

هكذا تقول وهى تنظر له بإعجاب وتتبعه بنظرها كأنما تحرسه من كل سوء . حكايتها غريبة والله مع ابنها ، خالتى أم محمد هذه . طالما ذقت المر وأرهقتها السهد وعذبها القلق والخوف عليه .

ولو أنه — مقصوف الرقبة — حفظ جميلها وراعى قلقها عليه وانشغالها من أجله وعاش كما يعيش الناس غيره ، فى حاله ، من الأرض التى يزرعها إلى المنزل لعاشت خالتى أم محمد قريرة

العين مرتاحة الخاطر ، أسعد من أمهات العالم أجمع .

ولكنه — يحرس له شبابه — يقحم نفسه في مشاكل القرية وكأنه المسئول الوحيد عنها . ثم يتعدى نشاطه إلى القرى المجاورة وكأنه الثور الذى يحمل الأرض فوق قرنيه . إذا سمع عن حريق في قرية مجاورة سبق أهل القرية جميعاً في الجرى إليها . . . أو ذهب إليها طيران ، كما تروى خالتى أم محمد التى تبتى في منزلها فريسة القلق والعذاب أو تخرج إلى ظاهر القرية لتقف مع غيرها من النسوة على شاطئ الترع تشاهد الحريق من بعيد وتصرخ بلا وعى كلما سمعت صراخ النسوة في الحريق وضجيج الرجال وفخج النيران . . .

إنها تعرف أنه سيلقى نفسه بين النيران ليطفئها . . . ماذا يعتقد ؟ هل يظن أنه من جنود المطافئ . . . ولكن هؤلاء مدربون مستعدون للأمر ويرتدون ما يمنع عنهم بعض الأذى . . . أما هو . . . فهى تعرف جرأته . . . سيحاول الجميع إطفاء النيران ولكنهم في نفس الوقت يحافظون على أنفسهم ويبعدون أنفسهم جهد الطاقة عن مواطن الخطر ، إنهم يفكرون ويتدبرون قبل أن يقدموا . . . أما هو . . . سيدخل المنازل المشتعلة لإنقاذ من فيها أو ما فيها من مواشى وحبوب . . . أكل عيش ناس . . . كما يقول هو عادة .

لن يخشى على نفسه ولن يحسب حياته حسابا . هكذا تعرف عنه خالتي أم محمد ، فهي تعيش في كل جزئيات شعوره وعواطفه ، وتمتزج بكل ما يحتلج في صدره حتى لم يكن لها أن تعرف في كل وقت ماذا يدور في رأسه . . . وهي لهذا تخشى عليه ، وينتابها كثير من القلق حتى يعود لها سليما معافى ، وتعود معه تلك الأقاويص الصغيرة التي تملؤها بالزهو وتزيد في قلقها عندما يجد جديد . . .

— محمد هو الذي فعل هذا ، وهو الذي فعل ذاك . . .

— محمد من ؟

هكذا يسأل بعض من لم ينتبه للحديث . . .

فيجد الكثيرين يقولون في نفس واحد فيه عتاب ولوم . . .

— محمد ابن خالتي أم محمد ، من غيره ؟

وعندما جاءت الكراكة التي تظهر الترع والمصارف وتحمل من أعماقها الطين والحشائش المتراكمة لتلقيها على الجسور . . . عندما حضرت الكراكة كان لحضورها دوى كبير في جميع القرى التي تقع على المصرف . ستلقى الكراكة ما تخرجه فوق الأرض المزروعة ، فوق شجيرات القطن . ضاع المحصول يا اولاد . . . خربت بيوتنا . خسارة التعب طول السنة . . . المحصول الذي

ننتظره لدفع الإيجار... المحصول الذى يسدّد إيجار الذرة والبرسيم
سيضيع تحت الطين... سيضيع بين فكي الكراكة الضخمة...
ستدور الكراكة وتهدر ويصم صوتها الآذان ويقتل الهدوء
والسكينة التى تخيم على القرى، ثم ينزل القادوس الضخم إلى أعماق
المصرف ويخرج مليئاً بالطين والحشائش ويرتفع رويداً رويداً
والمياه تنساب منه وهو يرتفع، وعندما يصل إلى فوق ويجذب
الرؤوس والأعناق معه لتنظر إلى فوق سيدور ويتحول من فوق
المصرف إلى الأرض... آه، ياللقلوب، الطيبة التى يمزقها هذا
القادوس وهذه الكراكة... سيدور حتى يصبح فوق شجيرات
القطن ثم يهبط رويداً رويداً... ليفتح فاه فجأة ويلقى بما
فى جوفه... فوق مئات ومئات من شجيرات القطن العريضة...
خراب بيوت... دوى شديد أزعج القرية وملاً أهلها بالخوف
والهلع... ولكن ماذا يفعلون...؟ هذه أوامر الحكومة...
ومن يتعرض للكراكة يحدث له كذا وكذا... بل ومن الذى
جرؤ على هذا التعرض منذ كانت هناك كراكة بل وقبلها عندما
كان يحضر عمال التراحيل...

وخرج محمد ابن خالتى أم محمد وفأسه فى يده... ووقف
على رأس حقله...

— لن تمر الكراكة... سأفتح رأس من يلقى حفنة من

التراب فوق القطن ... أكل عيشنا يا ناس ... انتظروا حتى
تتفتح لوزات القطن ثم افعلوا ما تشاءون ... بالعقل ياهوه ...
ولكن من الذى يسمع حديث محمد ...؟ والكراكة
ضخمة ... ضخمة ... وفأس محمد وإن كانت أجود فأس فى
القرية إلا أنها لن تستطيع الوقوف أمام الكراكة ... أبداً ...
ويذهب محمد للمركز ... أخذوه ... اثنين من الخفراء بناء
على إشارة من المركز للعمدة الذى ذهب بنفسه ليقنع محمداً ولكن
بلا جدوى ...

أصبحت له حكاية ضخمة وأحاديث تروى فى القرى
والبلدة ، أحاديث كبيرة فيها المأمور والمعاون والعمدة ومهندس
الكراكة ...

وتمرض خالتي أم محمد ، إنها لا تستطيع الحياة بدونه يوماً
واحداً ، بل هى لا تعيش إلا من أجله ... محمد ... حبة
عيناها ... ثم هى تغالب مرضها لتذهب للمركز ، لأول مرة ،
وتقف أمام عسكري ، وجاويش ، ولا ترهب كل هذا الحشد من
الجنود الذين يملأون المركز ... تسألهم على استحياء فى أول
الأمر ، ثم تصرخ فيهم وقد ذهب عنها الروع والخوف ...

ابنى . . . حبيبى . . . أريد ابنى فقط . . . خذوا القطن والزرع
كله . . . إن السكر اكة تعمل عملها الآن فلماذا تحجزوه عنكم . . .
أليس فى قلوبكم رحمة . . . ؟

وتعرف خالتى أم محمد طريق الشكاوى والمأمر ووكيل
النيابة ، وتعرف كيف تتحايل حتى ترسل لابنها فى سجنه أرغفة
من الخبز وبعض أقراص من الطعمية . . .

وعندما يخرج إلى باب المركز ، هذا الذى عذبها طويلا ،
وأرهب أيامها ولياليها تأخذه خالتى أم محمد بالحضن وتقبله فى
وجهه وفى عينيه ، وتقبل كتفيه وذراعيه ، كم تحببته يا خالتى
أم محمد ، بل هذه عبادة وليست حبا ، فما يحب أحد ابنه كما تحب
هى محمدآ ، وما يرفع أحد ابنه كما تفعلين مع محمد . ولكنه سامحه
الله ، يعذبك ليلا ونهارآ ويرهقك بالقلق عليه . أملها الوحيد
أن يصبح كبقية عباد الله . أن يلتفت إلى عمله ويعيش فى سلام
كما يعيش الناس . يبحث عن أكل عيشه ويتزوج التى تعجبه
وينجب منها البنين والبنات . كم تحب خالتى أم محمد أن ترى أبناءه ،
أحفادها ، وتحملهم وتطعمهم وتقوم عن أمهم بكل ما تقوم به
الأم للأبناء الصغار ، بل كم تحب أن تجلس أمام باب منزلها
فى شمس الضحى شتاء أو فى ظل الحائط صيفآ وعلى قدميها ، وفى

حجرها ، أولاد ابنها محمد ، وحولها ، حولها في كل مكان ، يملأون البيت أبناء هذا الابن . ليته يفعل هذا ويستريح من كل هذا الشقاء الذي يجلبه لها ولنفسه — ولكن ماذا يفعل يا خالتي أم محمد ؟ أيجب أحد لنفسه أن يشقى ؟

هكذا يسألها البعض . . .

— كان يابني يعيش في حالة ، كان يدور مع الأيام كما يفعل الناس جميعاً . يجب أن يخضع للظروف أحياناً . الناس كلهم يفعلون هذا . . . هل سيصلح الدنيا وحده . . . لا يعجبه ما يحدث للناس . . فيعرض نفسه للمشاكل . ولا يعجبه ما يحدث له فيعيش دائماً وسط المشاكل .

وتشير خالتي أم محمد إلى محدثها بأصبعها :

— أنت نفسك . . . هل تفعل مثله ؟

— كل واحد عقله في راسه يعرف خلاصه يا خالتي أم محمد . الناس بتجرى على أكل عيشها .

— ولماذا يكون أكل عيشه هو محفوفاً بكل هذه المشاكل ؟

وتضرب خالتي أم محمد يداً بيد وتدعو للشايخ وأولياء الله

الصالحين الذين استجابوا لدعوتها من قبل . الإبن الوحيد الذى بقى لها ولم تلتهمه الجبانة ، يحدث له كل هذا ، لم ياربى ؟ لماذا لا تترك هذا الإبن لخالتى أم محمد ، تتركه يعيش كما يعيش الناس حتى تنام ذات يوم وقد اطمأن قلبها عليه ، وهدأت أفكارها التى أرهقها دوام التحليق حوله ؟

ولكنها رغم كل هذا تحبه ، حتى مع القلق والعذاب الذى تعيش فيه من أجله . بل إن هذا العذاب ، ما كان ليرهق خالتى أم محمد كل هذا الإرهاق لو أنها كانت تحبه أقل من حبها له . بل إن عدم الخضوع هذا الذى يجعله يعيش فى دوامة من المشاكل يدفعها إلى التعلق به أكثر من تعلق أمهات القرية بأبنائهن . إنه ابن لم ترزقه أم منهن ، هكذا تعتقد كل أم فى ابنها . . . والقرود فى عين أمه . . . غزال . . . لكن خالتى أم محمد تدير بصرها وفكرها حولها فى القرى المجاورة فلا تجد لابنها نظيراً فيطير قلبها من القلق عليه واللهفة على ما يجرى له ويزداد امتلاء قلبها بحبه والخوف عليه ، إن كان لا يزال فى قلبها فراغ لاى زيادة أخرى .

وتتعثر خالتى أم محمد فى كتل الطوب التى تملأ الطريق الزراعى إلى منزل خطيب المسجد وشيخ الخفراء .

— والنبي تنصحه يا سيدنا الشيخ . ويا حاج علي . . كله
ربنا يستره .

ولا فائدة من حديث سيدنا الشيخ والحاج علي . وما في رأس
محمد ينفذه ، فهو لا يفكر فيما يحدث له من عواقب . إنه فقط
لا يريد لأمه أن ترهق نفسها كل هذا الإرهاق . . . لو أنها تستريح
وتتركه يفعل ما يشاء . . . الناس جميعاً لهم أبناء ، والكثيرون مات
لهم كثير من الذرية . . .

— أنت فقط التي لك ابن تخافين عليه . . . ؟

هكذا يقول محمد ، فهو لم يعرف قلب الأم وما فيه . . . وكيف
له أن يدرك كل ما يضطرم في قلب أمه من عواطف حادة عميقة ؟
وأخيراً تأتي المشكلة الكبرى ، ومحمد مشاكه لا تنتهي ،
يقف أمام صاحب الأرض ، مرة واحدة !!! الفلاحون جميعهم
ينفذون أوامره ، حتى العمدة والمشايخ كلهم يحرسون على رضاه ،
إلا أنت يا محمد . . . أنت فقط . . . ؟ لم هذا ، المكابرة ؟ كل برغوث
على قدر دمه يا بني ؟

ولكنه لا يستجيب لحديث أمه . . . إنها تقول هذا دائماً :

عندما تشاجر مع مهندس الزراعة من أجل محضرى البرسيم
قالت هذا . . . وعندما وقف للشيخ عبد السميع وصرخ فيه
وهدهدته قالت أيضاً مثل ما تقول هذه المرة .

— تريدن أن يطاوا عنق بأقدامهم ؟

هكذا يتصور محمداً ما تريده أمه ، وهكذا يواجهها فى ثورة ،
وهى تريده أن يكون فوقهم جميعاً وأكبر من كل العمد والمشايخ
بل ومن العالم أجمع . ولكنها تخشى عليه مشاكله هذه التى تجده
فى وسطها والتى لا تدرى كيف تنشأ . فجأة يصبح محور مشكلة
ضخمة . لماذا هو ؟ ابنها فقط ؟ !

ومرت المشاكل الماضية بسلام ، وخرج منها سليماً ، وبقي
لها يدفىء قلبها ويملاؤها المنزل . . . ولكنه هذه المرة أيضاً
فى خضم مشكلة أكبر وأمام قوة أعظم من كل القوى التى خاض
معهام معارك .

— هذا حق لماذا أتركه ؟ الحكومة قالت الإيجار كذا . . .
لماذا أدفع أكثر ؟

— الناس جميعهم يفعلون هذا ، سيطردنا من الأرض ،

من القرية التي عاش فيها أبوك والتي عشت فيها طول عمرك ...
سنتركها !!! إلى أين ... ؟

— بلاد الله واسعة . هذا إذا طردنا ، ولكنه لن يستطيع .

— يا بني لقد فعل هذا مع كثيرين . سيطردك بالحكمة
والبوليس ... ولا عقد إيجار معك ولا ما يثبت أننا دفعنا إيجار
السنة الماضية ... لماذا لا تهدأ وتعيش كما يعيش الناس ...
أليس في الدنيا رجال غيرك ؟

— لن أدفع ... لماذا أظلم نفسي من أجله ؟ ولماذا يأخذ
أكثر من حقه ؟

وكانه رقيب على المبادئ والقانون والأخلاق ابن خالتي
أم محمد هذا .

— أتقيم الدين في مالطة ؟

هكذا تصرخ خالتي أم محمد . وهي لا تدري لكل هذا الذي
يشير به ابنها سيباً . لماذا يعيش في كل هذه الدوامة ؟ ما الذي يجعله
ثائر الأعصاب هكذا أبداً ؟ لم يعيش في كل هذا القلق ؟ ولماذا
يحير قلبها وعقلها معه ؟

لماذا لا يهدأ حتى تهدأ أيامها ولياليها ؟

هذا ما يحير خالتي أم محمد . أيعيش وفي داخله شـعلة
من النيران لا تجعله يهدأ ولا يستقر ؟ الناس جميعهم تمر بهم
المشاكل وتمتليء حياتهم بصنوف القلق . . . ولكنهم ليسوا مثل
ابنها محمد ، أبداً . . .

— لو إنه هدأ وعاش كما يعيش الناس حياة عادية .

لو إنه ترك الحياة تسيره وتأخذه إلى هذه الناحية أو تلك ،
كما تفعل بالناس . . . ؟

وتمنيات كثيرة تتمناها خالتي أم محمد ولا يتحقق منها شيء ،
وقلها يمتليء دوماً بالقلق والخوف واللهفة عليه . والأبناء
الكثيرون الذين أودعهم الجبانة الكبيرة تتحول مرارة فقدهم
والحب الذي كان يمكن أن يشملهم جميعاً إليه ، إلى محمد . وتحيطه
بمزيد من العناية والرعاية والحب حتى لتكاد تقطع له لقيات الخبز
وتضعها في فمه ، وتحضر له جلبابه ، وتناول له فأسه ، وتشيعه مثلما
تستقبله بالدعوات الصالحات . وكل أملها ، أملها من قديم ،
أن يهدأ ويستقر ويعيش مثلما يعيش الناس ، حتى يهدأ قلبها عليه
ويستقر فؤادها الذي يطير شعاعاً من أجله . تريد أن تأمن عليه

غدر الدهر والحوادث... ولو استطاعت أن تخبئه في أحشائها
ثانية ، أو في قلبها لفعلت... فهناك يمكنها أن تكون أكثر
اطمئناناً عليه .

ولكنه لا يريد أن يهدأ ولا يدعها — خالتي أم محمد —
تهدأ... إنه قرّة عينها ، كل حياتها وهو مع ذلك سبب عذابها
وقلقها . لو إنه أراح نفسه وأراحها بعد هذا العمر الطويل !!
— ربنا يهديك يا بني ...

هكذا تردد خالتي أم محمد لابنها ولنفسها... وهي ترفع
يديها وعينيها في ابتهال واستجداء إلى السماء .

فاطمة العبيطة

كان الأطفال في طرق القرية الصغيرة يرددون كلهم
الخالدة : الخواجة فلس باع البرنيطة ، واجوز فاطمة العبيطة . . .
ولا يدري أحد إن كان هذا القول قد ابتكر بمناسبة فاطمة قريتنا
أم أنه كانت هناك في الماضي فاطمة أخرى ، عبيطة أيضا .

أما هذا الخواجة المشهور فلا يدري عنه أحد في قريتنا
أو في القرى المجاورة شيئا . وهذا يؤكد أن الموضوع كله أقدم
وأعرق من موضوع فاطمة قريتنا . ومن هي حتى يصبح لها

تاريخ ؟ ! وحتى تروى عنها الكلمات جيلا بعد جيل ؟ هذه
العبطة .. !!

وعندما تضع فاطمة قدمها على أول مدخل القرية تفاجأ
بالأطفال من حولها يصيحون ويهللون في فرح صياني مجنون
لا يعرف الحدود ، « اختواجه فلس باع البرنيطة واجوز فاطمة
العبطة » . وهم يصفقون بأ كفهم الصغيرة ويرقصون ويقفزون
في الهراء ويجرون هنا وهناك حولها ، حول فاطمة ، العبطة .

كيف عرفوا بحضورها وكيف تجمعوا هكذا سريعا ؟
لا أحد يدري .

ومما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يقال إنهم قد أنشأوا فيما
بينهم نظاما للاستطلاع ليعطيهم الإشارة بحضور فاطمة . ولكن
كيف يعرف هؤلاء العفاريات الصغار بحضورها ؟

وتمضي فاطمة في سيرها خلال درب القرية المتعرج كطريق
ججا . . . وهي تهش الأطفال وتزوم في وجوههم . . . ثم تلجأ
إلى الجدران تسير بجوارها وترتكز إليها . . . وهي غاية في الأسى
والحزن والضعف والتخاذل . . .

فإذا من عليها الله بمرور واحد من رجال القرية امتلأ قلبه بالشفقة عليها ، وهو يرى الأطفال يعوون حولها ويجذبون أطراف جلبابها كذئاب جائعة أو ككلاب القرية مع الغرباء ، وطردهم عنها ، نظرت إليه فاطمة ، في امتنان وكأنه قد أنقذ حياتها ، وتمتعت من بين شفتيها كلمات متقطعة ... مختلطة ... تدعوه فيها بأشياء غير مفهومة ...

ويمضي الرجل منكساً رأسه إلى الأرض وصدره يضطرب بشعور مختلط من الرحمة والحب والشفقة ، وقد اعتقد في أعماقه بأن ما فعله حسنة سيجازيه الله عنها ... ما دام لا يقدر على الإحسان لفاطمة بحفنة من القمح أو كوز من الأذرة أو حتى بكسرة من الخبز ...

ويعود الأطفال لهجومهم الخاطف على فاطمة وهم يرقصون ويصيحون كالهنود الحمر أو كقبائل نيام نيام التي يروون عنها الأساطير والخرافات . وتعود هي لمحاولاتها اليائسة في الهروب أو الالتجاء إلى جدار أحد المنازل وهي تجذب ثوبها منهم وتمسك بيدها « القفّة » التي تفارق رأسها ، والتي تجمع فيها ما يمن عليها به المحسنون ...

وتمر فاطمة على بعض دور القرية ، لا كلها ، فهي تعرف

بجربتها السابقة أن هناك منازل لافائدة من المرور عليها أو الوقوف عندها . سطردها المرأة ، ربة المنزل ، إذا كان بابها مفتوحاً ، وسيخبرها ، مقصوف الرقبة — ابنها — بأن هذه هي فاطمة العبيطة إذا كان بابها مقفلاً ، ولن يفتح الباب من بعد ، حتى وإن وقفت فاطمة طول النهار ...

لكن أمور فاطمة لا تدعو إلى مزيد من الحزن ، فكثير من دور القرية تعطف عليها وتقدم لها الخبز والطعام ... ودور أخرى في القرى المجاورة تقدم لفاطمة أيضاً ما يقيم عليها حياتها وما يمنحها من الموت جوعاً ... والزكاة فرض واجب ... ومن أحق بها من امرأة وحيدة لا أهل لها ولا زوج ، وهي فوق هذا كله بلهاء لا تتقن عملاً أو صنعة ... وأحب الناس إلى الله هم البلهاء ، كما يقول سيدنا الشيخ ... فهم لا يحملون ضغينة ولا يفعلون سوءاً ... وإنما تسيئهم الحياة في كل يوم وساعة ... وكأنما لهذا الغرض وحده يعيشون ...

منزل واحد لم تكن فاطمة تطرقه أو تقرب بابه ، ذلك هو منزل العمدة . وهو أمر غريب ! ، سره مجهول ؟ لأن منزل العمدة لا يرد طارقاً ، والمتسولون رجالاً ونساء وعازفو الدفوف والربابة والمواويل وغيرهم من فناني الريف يحضرون للقرية من أجل

العتاء الذى يقدم لهم جميعاً بلا استثناء سواء حضروا كل يوم
أو على فترات متباعدة... لماذا تشد هى فقط عنهم، أأكون
هذا نتيجة عبطها المشهور...؟

وتدور فاطمة مع الدرب وصيحات الأطفال وغانائم يلاحقها
كظلمها، أو كهذا الذباب الذى يلحق وجوه الأطفال لا أتركها.
وما أن تقترب من منزل العمدة حتى تدبر وجهها وهى تدمدم
وتسخط... وتسرع فى خطوها، ولو أن أحداً تفحص حالتها
بدقة عند هذا المرور لأدرك أن هذه اللحظة هى الوحيدة التى تنسى
فأها زفة الأطفال وصياحهم حولها... كان أأدو أأأ أن نفورها
من منزل العمدة أأأ عليها تلك اللحظة من أأأها ولا أأأها تشعر
بشأ آخر.

فأذا شاءت أأأ أن أأكون أأوم أأأأأأ فى السوء لفاطمة
فأأها أأأأأأ أأأ، أأأ العمدة الشاب، الذى لم أأأأ فى المأارس
أو لم أأأأ مع المأارس، وقد ركب فرسه وأأأ أأأأ شأنه
فى أأأ أو فى أأأأ أأأأأأ. ولن أأأأ أأأ أأأأ أأأأ
الشأأأأ وأأأأ الذى أأأ فاطمة وهى أأأأأ، مع ذلك —
فى أأأ وأأأأأ إلى أأأأ أأأأ... وأصابع أأأأ أأأأأأ
وأأأأأ كأأأ أأأ أن أأأأ أأأ... أأ أأأ أأأأ أأأأ

عينها كأنما تدفع عن نفسها خطراً داهماً .

ويمر حسن بفرسه ، وقد لا يلاحظ العبيطة في وقفها ...
فتنهض وتتبعه بخطوات قصيرة سريعة وقد تركت خبرها وما
جمعت في يومها من المنازل ... كانت كالوحش يطارد فريسته
وهي تتبع ابن العمدة هذا ... ماذا بينها وبينه؟؟ ولماذا هذا
الحقد الشديد؟ ألا أنه ميسور الحال يعيش سعيداً هادئاً صحيح
الجسد والروح؟ ولكن الكثيرين يتمتعون بما يتمتع به ولا تحمل
لهم فاطمة مع هذا شيئاً مما تفصح عنه نظراتها وحركاتها معه ...
ولكنها عبيطة ، أليست فاطمة العبيطة ، التي اشتهر عنها العجب
حتى أصبح غنوة على شفاه الأطفال؟

* * *

ونظرة الرجال في القرية إلى فاطمة نظرة غريبة لا يمكن
تحديدتها بدقة إنهم يضحكون منها بينهم أحياناً ويتندرون على
ما تفعل ...

بعضهم يقول ...

— رأيتها تجلس على جسر التربة ساعات طويلة وفي يدها
عود من الحطب ... ويضحك آخر ...

— ولماذا تنقبه لأحوالها كل هذا الانتباه...؟

ويضحك بقية الرجال ، ثم يفرقون في ضحكهم في سرور حقيقي
عند ما يطلق أحدهم طليقة صائبة ...

— لأنه لم يتزوج بعد ... لماذا لا تزوجه بفاطمة ...؟
إنها والله عروس طيبة ...

وبعد أن تهبط الموجة الجديدة من الضحك يهدأ الرجال مرة
واحدة ويسودهم سكون عميق ... والذي يتالك نفسه منهم أولاً
لا يسعه سوى القول :

— ليس عندنا في القرية امرأة مثلها ... ألا ترون بياض
جسدها ... إن لحمها أبيض كالقشدة ، ينبعث منه دفء لذيق
كـرغيف الخبز الساخن ... خسارة والله ...

ويعض أحد الشباب على نواجذه وهو يتصور ، ما يتصوره
الجميع ، فاطمة بجسدها المعتدل المتناسق وعودها الجميل الذي وهبته
الطبيعة كثيراً من مفاتها ... عود لم يمتلئ بكثير من اللحم
ومع ذلك تشعر بطراوته وغناه عند ما تراه خلال التمزق على جانب
بطنها أو من ذلك القطع فوق ثديها أو من الشق الطويل فوق
ساقها ... وهي لا ترتدى شيئاً تحت جليابها ... وكثير منهم

لغوا فخذها وهي تجلس بلا انتباه أو رأوا صدرها وثديها وجزءاً
من بطنها وهي تتجنى لبعض شأنها... وشعرها الذهبي يتهدل
على ظهرها وفوق كتفها وتتشابك أغصانه... وعينها...
أرق وأجمل ما أبدع الله من عيون... حتى فيها، هذا العبيط، له
شفتان رقيقتان حمراوتان كأوراق الورد... آه لو لم تكن
عبيطة...!!

ويسبها كل منهم - في غميره - بغيظ...
- هذه العبيطة... لو لم تكن عبيطة لما نفذت من يدى...
وحى مع هذا العبيط يتصورها شبابه وهي بغير جلبابها هذا،
عارية...

وتتأوه أعماق الشباب وينطلق منها فرس أشهب يحمرى بكل
قوته ويعربد في أرض فضاء واسعة... وعندئذ، وعندئذ فقط
لا تصبح فاطمة عبيطة في تصورهم، وهي بكل هذا الجمال وهذه
الأنوثة وهذه التصورات، في تلك اللحظة تصبح فاطمة، فاطمة
فقط... ثم تنقطع هذه التصورات فجأة بلمحة إنسانية تنطلق
من أحد الرجال...

- مسكينة فاطمة... لا عقل ولا أهل...

— ربك لا ينسى أحداً من خلقه ...

وسرعان ما تسود الجلسة روحانية غريبة ليس بينها وبين
الاحاسيس السابقة صلة، ثم تمضى هذه الروحانية إلى عالم الأشباح
والعفاريت ... إن فاطمة تعيش تحت كوبرى على تقاطع الطرق
بين الحقول الشاسعة من كل جانب. هذا التقاطع الذى يحشى
الرجال أن يسيروا فيه منفردين فى المساء ...

ومن قائل فيهم بأن فاطمة العبيطة هذه، التى يحطون من قدرها
تأخى الجن والعفاريت، ألا تعيش بينهم؟ ومنهم من يقول بأنه
رآها ذات يوم تستحم عارية بجوار الكوبرى وعند ما اقترب منها
فوجىء باختفائها كلية وكأنها فص ملح وذاب ..

ويختلط حديث الرجال ببعضه عن فاطمة وجسدها الذى
لا يوجد مثله بين أجساد نساء القرية، وعن العفاريت والأشباح
التي تسكن مياه المصارف الكبرى والتي تعيش معها فاطمة ...
ولكن لا أحد منهم يتساءل عن هذا العبط الذى التصق بها .
لا أحد منهم يعرف إن كان شيئاً طبيعياً ألصقته بها الأقدار منذ
ميلادها أم هو من الأمور المستحدثة التى أصابتها بها الحياة
وظروفها ...

لا أحد منهم يتحدث عن سر هذا العبط المشهور ... منهم

من يتسامل بينه وبين نفسه . . . ومنهم من يلقي سؤاله في هدوء
كأنما يعتب على القدر والطبيعة . . . ثم ينسى الأمر كله . . .
ويضيع في الزحام . . .

* * *

عجوز في القرية لا تنسى الأمر أبداً ، ولا يضيع منها في الزحام .
وعند ما تقبل فاطمة على القرية لا تنهرها ولا تقفل الباب في وجهها
وإنما تأخذها من يدها إلى داخل المنزل - وقد تأخذها بين أحضانها
أحياناً - ثم تجلسان وتجلسان إلى أن يشاء الله ، تتحادثان في ود
وتعاطف . والذي يدخل على مجلسهما ينتابه العجب لهذه الجلسة
التي تجلسها فاطمة العبيطة ، بل وقد يخيل إليه أحياناً أن فاطمة في
هذه الجلسة وبهذا الحديث لا يمكن أبداً أن تكون عبيطة . . .

كانت العجوز صديقة لأم فاطمة ، فقد كان للعبيطة أيضاً أم منذ
سنوات كثيرة ، وكانت تعيش مع ابنتها في منزل العمدة تقومان
بخدمة من فيه لقاء طعامهما وكسائهما وقليل من النقود تعطيها إياها
زوجة العمدة ، عند ما تشتد حاجتهما إليها . وأهل القرية جميعاً
يعرفون هذا ، فقد عرفوا فاطمة منذ ولدت ومنذ أن كانت صغيرة
تلاعب مع الأطفال ثم بعد وفاة أبيها حيث انتقلت مع أمها
إلى المنزل الكبير .

وتمضى سنوات تموت فيها أم الفتاة وتبقى هي حيث هي في حياة
تفضل كثيراً حياة أهل القرية . حياة ليس فيها أعمال شاقة في الحقل
ولا روث الحيوانات ، مع طعام جيد وملابس نظيفة ، ومعاملة
فيها كثير من الرقة والتهديب .

وعرف أهل القرية فاطمة صبية شب عودها وامتلاً صدرها .
وراودت الأحلام الجميلة بالزواج من فاطمة كثيراً من شباب
القرية . وأخذوا يخطبون ودها ويتملقون زوجة العمدة أن توافق
على الزواج ولكن فجأة ... وبلا مقدمات ... تختن فاطمة ...
هكذا مرة واحدة كأنما اختطفها العفاريت الزرق ... وبعد شهور
عادت فجأة إلى القرية بهيئة تختلف تماماً عن فاطمة التي عرفوها ...
كانت قد أصبحت فاطمة العبيطة ...

وتسألوا فيما بينهم كثيراً وأحاطوا فاطمة بالأسئلة فلم يفر
أحد منهم بخبر ... العجوز فقط كانت تدرك ما خفي عنهم ...
هل عرفت بالغريزة فقط أم أنها استطاعت أن تتزعم من بين شفقي
الفتاة ما أعانها على الفهم ؟ من يدري فقد أطبقت هي أيضاً شفقتها
على سر الفتاة ... والله وحده يعرف ما في القلوب .

وتحيط العجوز كتف فاطمة بذراعها ثم تقدم لها ما عندها
من طعام ودموعها تفيض في صمت ... فقد كانت هي أيضاً فتاة

صغيرة ذات يوم ... تراودها أحلام العذارى عن المنزل والزوج
والسعادة ... وهذه الفتاة أين ذهبت أحلامها ... ؟ وتصور
العجوز وحشية ما حدث ...

حسن وقد عاد خائباً من المدارس يجد الفتاة صبية فاتنة تشتهى
تعيش معه كل يوم ، وتدخل عليه حجرته مستيقظاً ونائماً ...
ولا تستطيع عصيان أمره ... غنيمة ميسرة ، ثمرة ناضجة
في متناول اليد ...

وكانت الطامة حينما استيقظت الفتاة وأخذت تصرخ ...
حتى غابت عن الوعي .

وساد المنزل هرج ، ولكن زوجة العمدة سرعان ما سيطرت
على الموقف وقررت أن الفتاة قد انتابتها موجة عصبية ، هكذا
بلا سبب ... ثم أضافت بأن أمها — أم الفتاة — أيضاً كان
يطوف بها طائف من الجنون ... مسكينة ... ورثت المرض
عن أمها ...

وفي الصباح ، خرجت الفتاة ولم تعد ، ويجد منزل العمدة
من يقوم بالخدمة فيه ... وبعد شهور عادت فاطمة ... عادت
وفوق رأسها « قفة » قديمة فيها كسرات من الخبز ...

وبدأت طوافها الدائم على منازل القرى منزل واحد
لا تطرق فاطمة بابه ، وشخص واحد تحمل له فاطمة من الحقد
ما يكفي الناس أجمعين ، ذلك هو منزل العمدة وحسن ابن العمدة .

— عبيطة . . .

هكذا يردد الصبية وهم يصفقون ويقفزون حول فاطمة . . .
وكذا أيضاً يردد أهل القرية والقرى المجاورة وكأنهم أخذوا
الحكمة من أفواه أطفالهم . . .

* * *

ويكبر أطفال القرية وتلهيهم الحياة وجدها عن فاطمة ،
ولكن أطفالاً آخرين يوجدون في القرية ، وهم أيضاً يصيحون
ويقفزون حول فاطمة وينثرون في الجو صيحاتهم كهذا الذباب
الكثير الذي يتواثب على وجوههم ويرددون : « الخواجة فلس
باع البرنيطة واجوز فاطمة العبيطة » .

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the
the third is the fact that the

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the
the third is the fact that the

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the
the third is the fact that the

هى وحدها....؟

ليس هناك من ينقم على الدنيا ، وعلى الناس والحكومة
والزمن ، مثلما تنقم خالتي عايشة الداية . وألفاظ النعمة والغضب
تنهال من فمها كالدموع من عيون الحزانى ، أو كالذباب على أفواه
الأطفال . وما أن تأتى مناسبة — والمناسبات كثيرة — قد تحتلها
هى بنفسها ، حتى تبدأ — خالتي عايشة — حديثها هذا الذى سمعه
أبناء القرية منها كثيراً .

— هذا آخر الزمان ، لقد انعدم الخير وأصبح الناس غيرهم

بالأمس . . . زمان . . . يا سلام على أيام زمان . كانت هي الأيام
حقيقة ، وكان الناس أفضل من ناس هذه الأيام كثيراً .

ويعجب من يسمع حديث خالتي عايشة من هذا القول ،
وغالباً ما يوافقها على رأيها ، وفي الحالين تمضى لتكمل حديثها
لتفسر أسباب نقمتها

— لم تكن تمر على ليلة بدون عمل . . .

حالة ولادة في الحلية . . أو سبوع في بحيط . . أو طهارة
في شمبارة كان من يحتاج إلى يحضر إلى منزلي وعندما
لا يجدني ، كان يذهب إلى حيث أكون ، في أي بلد أو قرية ،
وينتظرني ساعات أو يوم كامل ، حتى أتهى بما أنا فيه ، لأركب
دابته وأسرع إلى زوجته وقد امتلأ بطنها بالأم المخاض ، أو إلى
ابنته لأجرى لها عملية الطهارة . . أما السبوع فقد كنت أعرف
ميعاده فأنا التي استولدت المرأة .

كل النساء حولنا كنت أقوم بتوليدهن ، في البلاد والقرى ،
امرأة العمدة والشيخ والخفير والأجير . . . حتى عمك على الذي
يعيش على أموال الزكاة ، أنا التي قت ياخراج أبنائه الخمسة
من بطن امرأته .

وتتلفت خالتي عايشة حولها يملؤها شعور يشبه الفخر ممزوج
بالكبرياء والاستعلاء ...

— ساعدت جميع النساء ... العجوز والصدية ، الغنية التي
تلبس الحرير والفقيرة التي تلف جسدها بالدمور المصبوغ
بل وكثيراً ما استولدت الأم ، ثم ابتتها ...

عندما كنت أذهب للمرأة ، أى امرأة ، فى نهاية شهرها التاسع
عندما تأتيا الآلام التي تعرفها النساء جيداً ، آلام فى البطن عندما
يكون الجنين بنتاً ، أو فى البطن والظهر عندما يكون ولداً ، مع
شعور ضخم بالثقل والرغبة فى التبول ... عندما كنت أذهب
للرأة فى مثل تلك الحالة وقد تجمعت النساء حولها وبدأت هى
فى الصراخ والأنين ...

وتقاطع خالتي عايشة نفسها وهى تهمس كأنما تذيع سرّاً ...

— وبعضهن يزدن فى صراخهن وأنينهن كلما رأين النساء
حولهن وكلما سمعن تشجيعهن .. مكر النساء ودهائهن ...

ثم تعود خالتي عايشة الداية لحديثها ...

— عندما كنت أدخل حجرة المرأة فى مثل تلك الحالة كنت
أصرخ فى النساء حولها آمرهن بالخروج ...

وتنظر خالتي عايشة بجانب عينيها في لؤم ثم تضيف ...
— هكذا يجب أن يسير العمل حتى يسوده النظام والهدوء .
النهاية

هكذا تضيف وهي تلوح بيدها ثم تمضى ...
— وكنت أجلس بجانب الحامل ، ثم أضع يدي على رأسها
متوددة وأناجها بأعذب الألفاظ ... لماذا تصرخي يا حبيبتى ...
روحي أنا ... لقد حضرت يا حبيبتى ... حضرت خالتك عايشة
فلا داعي للصراخ ... لا تصرخي ثانية وإلا أُرهِقت ... فلا
تستطيعين مجاوبة الطلق ومساعدته عندما يجيء ... اهدئي الآن
يا حبيبتى ...

* * *

عندما ينظر المستمع إلى يد خالتي عايشة الضخمة الخشنة يهوله
مرآها ، ويعذر كل النساء اللاتي وقعن تحت يدها ... ويبدو أنها
كانت تفهم ما يدور في رأس محدثها ، فتتجسس يدها باليد الأخرى
وهي تقول ...

يدي هذه ليست أكبر من رأس أي طفل تلده المرأة ...

ويدي هذه فيها كل الفائدة . . . كنت أدفعها داخل المرأة آنحس
الرحم وفتحته ، والجنين وموضعه . وعندما يكون عنق الرحم
لا يزال مغلقاً كنت أعرف أنني سأقضى الليل بطوله بجانب المرأة
فوقت الولادة لم يح بعد ، والمرأة وأهلها قد تعجلوا استدعائي . .
ومعظم النساء كن يفعلن هذا ويعتقدن أن حضوري سيخلصهن
من لآمهن . . . ولكن هذه أشياء إلهية . . . ماذا أفعل أنا . . .
وكيف أخلصهن منها ؟ حتى الطبيب الذى يقولون الآن أنه يستطيع
إجراء الولادة أحسن منى . . . حتى الطبيب لا يستطيع منع آلام
الخاص . . . هذه أشياء إلهية . . . ولكنه زمن . . . ضاع منه
الخير والإنسانية . . . لقد استولدت مئات ومئات النساء . . .
وعرفت عن الولادة أكثر مما يعرفه أى دكتور . . . ولكن . . .
من يقرأ ومن يسمع . . . قال دكتور . . . ! كلام فارغ . . .
أيعرف الدكتور أكثر منى ؟

ذات مرة كنت أقوم بتوليد البنت شلبية زوجة خفير عزبة
حسنى . . . قضيت عندها نهاراً بطوله من بزوغ الشمس حتى الغروب
وليلة بأكملها . . . البنت غلبها النوم ، رغم الآلام التى كانت تعانها
بل وأغمى عليها عدة مرات . . . وأمتها العجوز جلست بجانبى
ورأسها تغلبها حتى تميل على صدرها . . . وعندما ترفعها مرة
أخرى كانت تجدى جالسة فى انتباه . . .

وتنظر خالتي عايشة بفخر وتقدير لنفسها ...

— أرواح ناس يا ابني ... أما الدكتور ، أى دكتور ...
هل يجلس بجانب أى امرأة هكذا كما كنت أفعل ... إنه يحضر
فيكشف عليها بسرعة ثم يقول ... حالة عسرة ... يجب إجراء
عملية ... ثم يسأل أهل المرأة ... هل تهتمكم الأم أو الجنين ...
هكذا فعل مع البنت شلبية ثم نقلها إلى المستشفى وأجرى لها عملية
وأنزله منها الطفل قطعاً صغيرة ... أما أنا ...

وتضرب خالتي عايشة صدرها بيدها ...

— لم أفعل هذا مرة واحدة . طول عمرى وأنا أقوم بتوليد
البنوة ، ما من مرة قلت أنه يجب قتل الجنين حتى تعيش الأم ...
وبعد هذا يحدث لى ما تراه ... حكمة ... دنيا ليس لها أمان ...
ناس لا يقدرّون الخير ...

ويقول المستمع لخالتي عايشة متسائلاً :

— وأنت ألم يحدث معك أن ماتت امرأة فى حالة ولادة
عسرة ... ؟

وترد خالتي عايشة من فورها :

— الأعمار بيد الله يا بنى . . . وهل أضمن أنا حياة الناس . . ؟
بعض النساء جاءهن الأجل وهن فى حالة الولادة ، ولكن الناس
نساء ورجالاً يموتون وهم فى تمام الصحة . . . فما ذنبى أنا فى هذا
الامر . . . ؟

ثم تتساءل خالتى عايشة :

— هل يضمن الطبيب حياة المريض . . . ؟ الطبيب يضمن
فقط عدة جنينات يقبضها فى كل حالة ، من الفقير والغنى ، سواء
مات الجنين أو ماتت الأم والجنين ، أو مات أهلها حتى يجمعوا
أجر العملية . . . زوج البنت شلبية ، الخفير ، يتقاضى ثلاثة
جنينات شهرياً ، يعول منها أمه وأربعة أطفال . . . ومع ذلك
رفض الطبيب أن يجرى لامراته العملية قبل أن يقبض ثمانية
جنينات . . . وكان يردد طول الوقت . . . يجب أن تجرى العملية
فوراً وإلا ماتت الأم أيضاً . . .

وتنظر خالتى عايشة وكأنما شعرت بالفوز . . .

— من أين يأتى مثله بثمانية جنينات ليعطيها للطبيب الذى
أخرج ابنه ميتاً والذى أجرى بعد ذلك للمرأة عملية أخرى . . .
هكذا قال . . . لأن الرحم تمزق . . . تصور أنه يقول هذا عما
أفعله ؟ . . . مع إننى أقوم بالتوليد منذ أن كان هو طفلاً صغيراً

يلعب . . . بل ومن بين من أخرجتهم إلى الدنيا أطباء مثله . . .
ولكن أرزاق . . . يقول هذا ليقبض الجنيئات الثمانية
فقط . . . عني عليكى يا عايشة . . . ربع الجنيه فقط كنت آخذه
من الفقراء ، وفرخة فى السابع . . . ثم نصف كيلة من الأذرة
أو القمح عندما يطيب الزرع . . . إنه أجر يستطيع دفعه أفقر
الفقراء عند ولادة الطفل . . . أما امرأة العمدة أو الناس المستورين
فهذا أمر آخر . . . كل يدفع على قدر حاله . . . والحدود بالموجود . . .
زينب بنت خالتك خضرة . . . الأرملة التى تعيش فى بحيط . . .
— أعرفها . . .

— ذهبت لتوليد البنت فوجدتها قد ولدت فعلا . . . حكمة
ربنا . . . كانت تعمل أجيرة فى جنى القطن عندما شعرت بجأة
بآلام المخاض فأخذت ناحية بين شجيرات القطن ورقدت . . .
وطلقة والثانية ثم أنزلت ولداً كالعجل الصغير . . . المساكين لهم
رب . . . لو أنها كانت ابنة الشيخ فلان أو الغنى فلان لشعرت
بآلام المخاض طويلاً ثم رقدت فى فراشها أياماً طويلة بعد
الوضع . . . أسبوع أو اثنين . . . ولكن زينب لم تتعطل عن
العمل سوى يوم واحد . . . بعده كانت تخرج إلى الحقل لتجنى
القطن من جديد . . . ماذا تفعل وقد أغضبها زوجها منذ شهر

وهي وأمها بلا رجل ولا مال سوى عرق الجبين ...؟
هل تعرف ...؟ ذهبت لها وربطت الحبل السرى وأخرجت منها
الخلاص ... وزرتها في اليوم الثالث لأطمئن عليها فلم أجدها
كانت في الحقل ... وأخرجت أمها عشرة قروش ، أتعابي ...
تصدق بالله ... رفضت بكل شدة وأخرجت من جيبى عشرة
قروش ألقيتها فوق المولود ... الناس لبعضها ... تصور زينب
هذه تذهب للمستشفى أو للطبيب؟ ماذا كان يحدث لها؟

وتمضى خالتي عايشة في نقمتها على الناس والزمن ، لقد عاشت
طويلاً ورأت كثيراً .

وكان عصرها الذهبي منذ ثلاثين أو أربعين سنة . لم يكن
الاطباء بكل هذه الكثرة ، ولم تكن المستشفيات قد عرفت بعد
في القرى والحقول . كان هناك مستشفى واحد في الزقازيق للمديرية
كلها . ولكن من من الفلاحين كان يذهب للمستشفى ، كان حلاق
الصحة يداويهم . أما النساء فلم يكن يعرفن سوى خالتي عايشة فقط .
كان هذا هو العصر الذهبي حقاً . العمل كثير والخير كثير والقرش
له قيمة . والنساء لا يتوقفن عن الحمل والولادة ، والنقود تنهال
على خالتي عايشة ، والحب ، القمح والأذرة والفول ، يملأ بيتها ،
والطيور لا تتوقف عن الصباح واللعب بين جنبات المنزل .

هكذا كانت الدنيا رفيقة حانية على خالتي عايشة... تعمل
وتجد مقابلاً ضخماً لعملها... كانت الدنيا يا بنى مليئة بالخير،
وكان الناس غيرهم اليوم، كانوا أكثر كرماً وإنسانية... فقيرهم
وغنيهم على السواء. أما الحكومة فلم تكن لتتدخل في هذا الأمر
وكيف تتدخل فيه؟ امرأة حامل تقوم بتوليدها الداية، ما شأن
الحكومة بهذا الأمر؟ كان الحكام يعرفون حدودهم ولا يتدخلون
إلا فيما يعينهم، في الانتخابات... نعم... في ضريبة الأتبان...
في السرقة أو القتل... هذه واجبات الحكومة... أما الحمل
والولادة والداية... فهذه بين الناس وبعضهم فقط... هكذا
ترى خالتي عايشة...

— وبعد يا خالتي عايشة...؟

— ماذا أقول يا بنى... ازدادت المستشفيات شيئاً فشيئاً...
أصبح في الزقازيق أكثر من مستشفى، ثم عرف الفلاحون طريق
القصر العيني... ولكن كل هذا لم يؤثر في عملي... يهمني أنا
الحمل والولادة لا الأمراض والجروح... ولكن المستشفيات
أقيمت في المركز، في أبو حماد... ولكن من الذي كان يذهب
إليها...؟ أنت تعرف... لم يكن يلجأ لها إلا القليل... وكان

الذى تضطره الظروف إلى البقاء فيها يبقى كارهاً وكأنما حكم عليه بالسجن . . . حقيقة إن الناس أصبحوا أقل كرمًا وإنسانية . . . وفقدوا كثيراً من الخير الذى كان يملأ جوانحهم . . . ولكن يبدو أن النساء كن يحملن كثيراً فى أيام الحرب . . . والعمل الكثير أتى بنقود كثيرة . . . كانت النقود تجرى بين أصابع الناس . . . لم يكن لها قيمة كبيرة ولكن كميتها كانت كبيرة . . . ومعسكرات الإنجليز كانت تعطى العمال أجوراً عالية . . . وخالتك عايشة كانت تأخذ جنياً كاملاً عندما تقوم بتوليد امرأة أحد العمال . . . أحمد أبو ابراهيم دفع جنياً . . . هل تصدق ؟ عندما ولدت امرأته ابنها سعيد . . . وفى السابع أعطانى خمسين قرشاً . . . هذا غير عدد من علب اللحم التى يأكل منها الإنجليز . . .

وتعقب خالتى عايشة على قولها الأخير . . .

— لم آكلها بالطبع . . . من يدرى إذا كانت الذبيحة قد ذكر عليها اسم الله . . . هل الإنجليز يعرفون ربنا أيضاً ؟

ثم تعود خالتى عايشة بعد فترة صمت قصيرة إلى الاستطراء فى حديثها . . .

— ثم أخذ عدد الأطباء يزداد وبعد أن كان فى المركز طبيب

واحد هو مفتش الصحة تواردوا واحداً بعد الآخر حتى أصبحوا
اليوم أكثر من خمسة وعشرين . . . وشيئاً فشيئاً أصبح الأطباء
يقومون بتوليد نساء الأغنياء وانتابت الغيرة النساء
الأخريات ، حتى أصبحت الولادة بمعرفة الطبيب شائعة بين
النساء . . . ولكنى — والشهادة لله — لم أفقد شيئاً بهذا التغير ،
فقد كانوا يرسلون لى أيضاً . . . إننى امرأة . . وأفهم النساء أكثر
من أى طبيب . . . وهن أكثر راحة معى عنهن مع الطبيب . . .
وكنت أحصل على أجرى كالمعتاد ، بل وزيادة . . . فالذى يدفع
عشرة جنيهات للطبيب لن يستكثر جنياً على الداية
أرزاق

ثم كانت المصيبة الكبرى ، البلاء الذى لا يمكن دفعه
فقد أنشأت الحكومة مستشفى للبلدة . . هذا الذى تراه . . . هل
طلب منها أحد إنشاءه . . . لكنها نقود كثيرة عند الحكومة ،
لا تدرى ماذا تفعل بها . . . ؟

هكذا تردد خالى عايشة وهى تسألنى وتؤكد لى . . .

— أليس كذلك . . . ؟

ثم تمضى وقد اشتدت نقمتها . . .

— واعتقدت أن إنشاء المستشفى لن يؤثر على العمل
ولكن يا بني . . . المستشفى أصبح فيه مع الطبيب حكيمة وممرضة
وتحت أمرهم سيارة . . . تصور سيارة يذهبون فيها لتوليد نساء
الفلاحين . . . ! وأنا . . . ؟

وتضرب خالتي عايشة صدرها . . .

— أنا التي ظللت أجوب البلاد والقرى ليلاً ونهاراً على قدمي
هاتين أو فوق ظهر الحمار أكثر من أربعين عاماً . . .

ثم تضحك خالتي عايشة . . .

— ولكن لم العجب ؟ . . إن ساعى البريد الذي رأيته طول
عمرى عجوزاً يركب الحمار ويرفع فوق رأسه مظلة قديمة ، أصبح
شاباً يركب دراجة . . . ومن يدري ماذا نرى غداً . . . ؟

وأخيراً أصدرت الحكومة أمرها بأن المواليد تقيد في المستشفى
فقط وأخذوا الدفاتر من عامل التليفون ووضعوها في
المستشفى . . . ثم أصدروا أمرهم الظالم بمنع الدايات من توليد
النساء ومن تريد الولادة تذهب للمستشفى أو ينتقل إليها
المستشفى . . . ماذا أفعل يا بني ؟ هل أقف وحدي ضد الحكومة

و ضد الزمن ؟ هذا الزمن الذى لم أعرف مثله أبداً طول عمرى ؟
شلبية وأم الخير وزينب ومبروكة كلهن يا بنى تحضر من
أجلهن عربة المستشفى هذه ، وفيها السيدة الحكيمة والمرضة . . .
بينما أقف أنا أشاهد هذا الموكب وأبكي الأيام والزمن وانعدام
الخير والإنسانية . . .

ويتضح الموقف تماماً تحت بصر من يستمع إلى خالتي عايشة
ويدرك ما هى فيه . . . إن لم يكن قد حدث معه ذلك من قبل .
وأخيراً لا يملك نفسه من سؤالها . . .

— وكيف تعيشين الآن . . . ؟

وترفع خالتي عايشة يديها إلى السماء . . .

— فضل ربنا واسع يا بنى . . . إنه لا ينسى عباده . . .
ربك يرزق الدودة بين الأحجار . . . الطيب والحكيمة يقومان
بتوليد النساء . . . وأجرى كالمعتاد يصل إلى . . . منزل العمدة
والمشايخ . . . والناس المستورين كلهم يفعلون هذا . . . أطال الله
بقاء السيدات بنات الناس الطيبين . . . كلهن يعرفن فضلى . . .
ولم يتنكرن لى . . . ييدى هذه أخرجت أبناءهن إلى النور . . .
وكلهم الآن قضاة وأطباء ومدرسون وموظفون . . . هل تنسى

أمهاتهم هذه اليد الأصل عليه عمل يا بنى

— بعض نساء الفلاحين لا زلن يرفضن أن تقوم بتوليدهن
الحكيمة . . . ولا يخبرن المستشفى إلا بعد إتمام الولادة . .
إنهن أوفياء لخالتك عايشة . . . هؤلاء لم يغيرهم الزمن ولم يتغيروا
مع الزمن . . . أما بقية الناس فقد جرفهم التيار ، وتغيروا كلهم
مع الزمن . . . وتركوا يدى خالتك عايشة . . . المظاهر تغرر بهم
يا بنى . . . منظر المستشفى النظيف هذا . . . والحكيمة ترتدى
المعطف الأبيض وتغطى يديها بقفاز . . . زمن يا بنى . . . زمن . . .
زمن انعدم فيه الخير وانقلبت الأوضاع كلها . . . دنيا غير الدنيا .
ومن يدري ماذا يحدث غداً .

وتمضى خالتي عايشة فى نقيمتها على الزمن والناس والحكومة
. . . . على هذا التغير الذى أصاب الحياة وعلى عصرها
الذهبي فى الماضى . . .

فى لىلة واحدة

كانت التسمية بداية حلقة جديدة من حلقات التطور . . . لىلى
مرة واحدة !! إنه اسم لم ىدخل بىوت الفلاحىن من قبل . . . اسم
علىه طابع المـدينة ، ذات المبانى النظيفة والشوارع الواسعة
والسىارات الكشيرة . . . اسم ىستدعى إلى الذهن السىيدات
الانىقات اللاتى يخطرُن فى شوارع المدن بالفساتىن الضيقة آخر
مودة . . . ولكنك ىارسمية صممت أن ىكون هذا هو اسم ابنتك
حتى وإن رفضه الـاهل جمىعاً ، أهلك وأهل زوجك . كان
عبد المعطى زوجك ، ىرىء أن ىسمى ابنته فاطمة ، على اسم فاطمة

بنت النبي ، واسم أمه . وكانت أمك أنت تتطلع إلى أن تسمى البنت على اسمها ، نفيسة . ولكنك يارسمية لم تكوني لترضخي لمثل هذه الرغبات ، وتركي هذا الاسم المودة الذي اخترته لابتنتك . وفي القرية من النساء العجائز من تدعى ست الدار أو بخاطرها أو أم الهنا أو نبوية ، هذا فريق الجدات أما الأمهات فمنهن فاطمة ومبروكة وسعدية وفتحية . واليوم ، وبعد أن اخترت أنت هذا الاسم يوجد شادية ونبيلة ونادية . هذا بعد أن سميت أنت ليلي . وبعد أن أدخلت أسماء فتيات المدن إلى القرية . ولكنك أنت التي بدأت هذا التطور الكبير في أسماء فتيات القرية يارسمية .

لقد سمعت — هذا الاسم — بأذنك التي سيأكلها الدود عندما كنت في طريقك إلى سوق المركز . وبينما أنت تخترقين المدينة وفوق رأسك القفة مليئة بالأذرة التي اشتريتها من السوق تنأى إلى سمعك صوت رقيق جميل — كم أعجبك هذا الصوت وقتها حتى تمنيت أن يكون لك مثله — وكانت صاحبة الصوت تنادى ابنتها ، ليلي . وتطلعت يارسمية لترى ليلي . حلوة لطيفة ، فتاة كالوردة الصغيرة بخدودها التي يطفح منها الدم ويأض بشرتها البضة وفسنانها الأبيض الصغير الذي يرتفع كثيراً فوق ركبتيها . يا للحلاوة — هكذا يجب أن تكون الفتيات .

(وتطلعت يارسمية تشبعين بصرك من هذه الحلاوة وأنت

تركز بين عقلك كله في بطنك ، الذى كان حجمه أكبر بكثير من تلك القفة التى تحملينها فوق رأسك ، وقلت لنفسك . تطاعى إليها وامائى عينيك حتى تأتى ابنتك حلوة مثلها . واستجمعت يا رسمية بصرك لتنظري مرات ومرات إلى الفتاة الحلوة الصغيرة التى كانت أمها تنادىها بذلك الصوت الرقيق .

ومنذ ذلك الحين واسم ليلي لا يفارق خيالك يا رسمية ، فى الصحو أو فى المنام ، فى السير أو القعود ، بل إنه كان يحلو لك أن تنادى الجنين بهذا الاسم كلما شعرت به يتحرك فى أحشائك . كم كان وقعه — ولا يزال — جميلاً يرن كالذهب — أبعد هذا كله كان من الممكن أن ترضخى لزوجك أو للأهل جميعاً عندما أرادوا أن تطلقى على ابنتك اسماً آخر ، فاطمة مثلاً أو نفيسة أو زينب أو غير ذلك من الأسماء . لا والله لا يحدث هذا أبداً ، ولن تسمى ابنتك إلا بهذا الاسم الجميل اللطيف الذى تحمله تلك الفتاة . آه لو تصبح ابنتك مثلها ، تلك الفتاة الحلوة .

ولكنك صمتت ونفذت ماعقدت عليه العزم . . .

وهاهى شهور طويلة تمر على ذلك الوقت يا رسمية . ولكنك تذكرين تلك الليلة — التى حضرت فيها ابنتك إلى عالم الوجود . تذكرينها كأنها كانت بالأمس فقط . فى تلك الليلة شعرت بآلام

المخاض الحادة الموجعة . آلام شديدة في الجانبين كأنما هي سكاكين حادة ، وخطبات موجعة في الحوض ، كأنما هناك من يلكمك فيه بشدة ، مع شعور ضخم بالخور والإرهاق ، وحاجة ملحة إلى أن تجرى نحو الزريبة لقضاء حاجة ، ولا حاجة هناك .

في تلك الليلة — وكما حدث في الليالي السابقة المماثلة — ارتبك عبد المعطى واضطرب ولم يعرف ما يفعل وكأنه طفل صغير وهو يسمعك ترقعين بصوتك كأنما حدثت حريقة ، ثم وأنت تتأوهين وتصدرين من أعماقك أنات مكتومة ، فيها كل الألم والمعاناة والعذاب الذي كان يطفح على وجهك على هيئة حبات متزايدة من العرق وصفرة واضحة كصفرة الليمون .

وعندما جاءت الجارات مهرولات ، واطمأن عبد المعطى إلى أنك تجدين الرعاية اللازمة ، أسرع إلى قرية الحسينية في طلب أمك . وفي ليل الشتاء المظلم ، وبرده القارس الذي كان يخترق عظام المرأة العجوز ركبت أمك حمارة عبد المعطى ، بينما سار هو إلى جانبها يستحث الحمارة على السير ، بأصوات يخرجها من فمه ، وبضربات بجمع يده في بطنها كأنما يريد لها أن تطير . أنت تعرفين شعور عبد المعطى زوجك ، في مثل هذه الأوقات يا رسمية . . . إنه لا يحتمل أن يمسك الهواء بسوء ، فكيف وأنت في مثل هذا العذاب ؟ . . .

أنت تذكرين تلك الليلة تماماً ، كأنما كانت بالأمس القريب فقط ...

في تلك الليلة — ووسط آلامك وضجة النساء حولك ، تذكرت ما كان يجب أن تقوله لزوجك من قبل . ولا تدري يا رسمية ما الذى أنساك ؟ أم أنك خشيت أن يهلك زوجك عندما يعلم أن الجاموسة فى حالة مخاض أيضاً . هل كان عبد المعطى سيقف بجانب الجاموسة يساعدنا على الولادة أم كان سيذهب لأملك يناديها إذا كان قد عرف وقتها أن الجاموسة ستلد فى تلك الليلة ؟ ولكن يجب أن تحمى عقلك يا رسمية . هل تجعلين رأسك — عند عبد المعطى — برأس الجاموسة وتنتابك الغيرة منها ؟

أنت أيضاً كنت تطلبين منه أن يقف إلى جانب الجاموسة يا رسمية ، فإنها كل ما تملكه فى الدنيا ... الأرض مؤجرة من أصحابها ، والمنزل يملكه أصحاب الأرض ، والمالك كله للمالك . ولكنك — عبد المعطى وأنت — تملك هذه الجاموسة الغالية هى فقط . وما كان قلبك يسمح بأن تترك وحدها فى مثل هذا الموقف المؤلم المريع . وأنت تذكرين جيداً إلى أى حد يصل الألم والعذاب ، بل إنه لو لم يكن عبد المعطى موجوداً — لذهبت أنت يا رسمية — بكل آلام المخاض الذى كنت تعانين منه — ووقدت

تحت أقدام الجاموسة ، وبذلت كل ما فى وسعك لمعاونتها حتى تلد .

كانت بشائر الولادة ظاهرة عليها . كانت تسير متثاقلة وأنفاسها تخرج من طاقتى أنفها بصعوبة ومعها إفرازات بيضاء تبرز بإفرازات أخرى من فمها . ومن خلف الجاموسة كان يتدل غشاء مخاطى طويل يكاد يصل إلى ركبتيها . وكان الجميع يقولون . . . ستلد جاموسة عبد المعطى غداً . وكان الكثيرون سيأتون فى ذلك الغد لبذل المساعدة للجاموسة حتى تلد ، بعضهم — أهل القرية — كان سيرقد لها النار حتى يدفئها من البرد القارس ، وأنت أيضاً يا رسمية لم تنعمى بالدفء فى ليلتك إذ لم تستطعى إيقاد الفرن — ورقدت تقشعرين تحت الأغطية . ولكن هذا لا يهم ، المهم أن أهل القرية كانوا سيحضرون فى ثانى يوم يساعدون الجاموسة على الولادة . وبعضهم — وهم الأكثر خبرة فى هذه الأمور — كانوا سيضعون يدهم فيها ، فى الجاموسة ، يعدلون وضع جنينها ويساعدونه على الخروج إلى النور .

ولكن أحداً من أهل القرية لم يحضر الولادة إذ خبت الجاموسة ظنهم جميعاً وولدت فى تلك الليلة قبل تقديرهم بيوم . أنت التى رأيتها عند الغروب ورأيت منها ما جعلك تتوقعين بأنها ستلد معك فى ليلة واحدة ، تلك الليلة التى تذكرينها جيداً كأنما

حدثت بالأمس وإن كنت لم تتذكرى إخبار عبد المعطى — فى ذلك الوقت — بحالها . لقد أهلك حالك عما كانت فيه هى أيضاً من معاناة وألم .

ولكنك تذكرت يا رسمية ، نعم . . . لم تنس الأمر كاية ، وما كان يمكن أن تنسيه أبداً والجامعة هى كل ما تملسان فى هذه الدنيا أنت وعبد المعطى . وسط ضجيج النسوة ، وبعد أن حضرت أمك على حمارة عبد المعطى فى نصف الليل ، ومن ذلك الألم الذى كان يمزق جنيدك ووسطك ، أخذت تصرخين الجاموسة الجاموسة أين عبد المعطى . . . ؟ ستلد الجاموسة الليلة

وبكيت يا رسمية بدموع غزيرة ، هكذا قالوا لك فيما بعد ، فلم تكونى فى حالة تسمح لك بمعرفة ما تفعلين أو بما يحدث لك . ولكن لماذا بكيت يا رسمية ؟ هل كنت تخشين أن يحدث لها شئ أثناء الولادة ؟ أم أن الألم المريع الذى كان يمزق أحشاءك هو الذى دفعك للتفكير فى آلامها ؟ ولمن كان بكاءك وعلى من ؟ عليها هى أم على آلامك أنت يا رسمية ؟ ولكن لم تبكين على آلامك وقد كانت أمك بجوارك تنادى بصوتها العطوف كما لم تناديك وأنت طفلة صغيرة تتشوقين إلى كلمة الحنان والحب كانت أمك

تنادى . . . ابنتى حبيبتى ، وتضمك إلى صدرها ، إلى قلبها ، أما
هى — الجاموسة — الجاموسة التى لا تملك أن غيرها فى هذا العالم
أنت وعبد المعطى فليس لها أم تضمها ولا قلب خون يرعاها .
أنت وعبد المعطى فقط اللذان تضعها فى قلوبكما وترعيانها أكثر
ما ترعى الأم أولادها .

ولو أنه حدث لها شيء فى تلك الليلة — لا قدر الله — لبكيت
بدل الدمع دماً — وعشت وعبد المعطى فى حزن دائم سنوات
طويلة ، مرهقة ، كلها جرع حتى يمكثكما شراء جاموسة أخرى .

وفى تلك الليلة التى تذكرين أحداثها جيداً يا رسمية ولدت
ابنتك لى . وفيها أيضاً ولدت الجاموسة عجلاً الصغير الذى كان
يركض حتى الأمس فى الزريبة ، ذلك العجل الصغير بشعره اللامع
وجسده المستدير الذى لا يظهر منه عظام . كم كان جميلاً شقيماً
وهو يجرى ويبرطع هنا وهناك ثم ينقض على أئداء أمه عندما
تدخل الزريبة ، عند الغروب . ولم يكن يبقى لكما شيء من اللبن
يا رسمية . حتى ولا لهذه البنت الصغيرة التى لا تجد عندك شيئاً منه .
لقد جف ثدياك سريعاً بعد ولادة لى . أنت لا تأكلين ما تحتاج
إليه الأم من طعام يا رسمية . من أين ؟ ولكنها ، أوه ، لم تكونى
لتدعيها تحتاج شيئاً . كنت تقفين معظم وقتك على جسور التربة
والقنوات تجمعين لها الحشائش الخضراء الطرية ، وكنت تناولينها

بيدك قبضات من الشعير تحتلسينها مما تعدانه لصنع الخبز . فمن الذى فعل معك مثل هذا حتى تدر أئداءك هذه الجافة شيئاً من اللبن للصغيرة . ولكنها كانت تجد حاجتها من الجاموسة أيضاً . كنت تدفعين ذلك العجل أحياناً لتحصلي على شيء من اللبن لابنتك . . . ماذا تفعلين . . ؟ أنت ترهقين نفسك لجمع الحشائش ، ويجب أن تجد ابنتك هذه بعض اللبن حتى تعيش .

فى تلك الليلة - ليلة ولادة الجاموسة - جاء عبد المعطى يهرول وكنت أنت لم تلدين بعد . وطلب من أمك أن تعد قدرة كبيرة من المسلوقة - فول وشعير - حتى تأكل الجاموسة وتستعيد قوتها . وفهم الجميع أن الولادة قد تمت وتناول عبد المعطى بصلتين كبيرتين ضغطهما بين كفيه حتى مزقهما ، ثم أخذهما إلى العجل الصغير ليضعهما على طاقى أنفه حتى تهيجان وتؤديان وظيفتهما فى الشهيق والزفير .

وكنت أنت يا رسمية - ترقدين على قبة الفرن وقد ألقوا عليك بطانيتسكا القديمة - وعندما سمعت عبد المعطى يطلب المسلوقة امتلأت بالفرح والسعادة ، وكدت من بين دموعك الجارية ، والامك الفظيعة ، ترقعين زرغوة يسمعها من ينام فى القرى

المجاورة . ولكنك حبست فرحك في داخلك ، واستجمعت قواك كلها ، والنسوة يشجعنك ، وأملك تستحثك وكأنها تلمعك . ومع صرخة ألم عالية منك شعرت بالفرج وبالفرار في داخلك ، وبأن عبثاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلك ، وانطلقت الزغاريد من أفواه النساء وهن يتساءلن هامسات ولد أم بنت ، ثم ماتت الزغاريد على شفاههن عندما علمن بأنها ليلي . ربك العاطي يا رسميه ، ولدأ كان أم بنتاً ، ما الفارق ؟ لا الولد ينفع أهله ولا البنت . ماذا فعلت أنت لأهلك . وما الذي فعله عبد المعطي أكثر منك ؟ . . . إنها القسمة والنصيب . بل إنك كنت تلهفين إلى البنت منذ ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى المركز وسمعت تلك الأم تنادى ابنتها ليلي . ولو أنها كانت ولدأ — كنت ستفرحين يا رسميه ؟ هذا لا شك فيه ولكنها — قسمة ربنا ، ثم كيف كنت ستدعيه ليلي .

ومدت أمك — في تلك الليلة — يدها إلى بصلة صغيرة — بعد أن عقدت الحبل السرى ثم قطعته — وفركتها في أنف البنية فصرخت واء واء وأملك تتظاهر بالسخط وتلعن مقصوفة الرقبة التي جاءت بها في منتصف الليل وفي البرد الشديد

وفي ثاني يوم ذبحت لك أمك فرخة التهمتها وحدك
هكذا يجب أن تسير الأمور ، وإلا ساد النحس وجف لبن الأم .
ولكنك اضطرت للقيام ثاني يوم يارسمية . ماذا تفعلين
والجاموسة تحتاج إلى من يسلق لها الفول ، وأمك قد غادرتك
لتصنع خبز أولادها الذين لم يتزوجوا بعد . هذا ما حدث تماماً
كأنه كان بالأمس . إذ جلس عبد المعطى ينفخ في جذوات النار ،
ويميل برأسه حتى يكاد يصل به إلى الأرض ، وينفخ بقوة فلا
يتصاعد سوى دخان يملأ عينيه وأنفه ويسيل الدموع من عينيه
ويجلب الكحة والحشرة إلى صدره . واضطرت يارسمية إلى
القيام ، ولا من يقوم من ولادة إلا بعد سبعة أيام أو ثلاثة على
أقل تقدير ، وجلست إلى جانب عبد المعطى أمام جذوات النيران
ثم رفعت ذيل ثوبك — وأمسكت به بين يديك وأخذت في رفعه
وخفضه حتى تشتعل النيران . ويقول لك عبد المعطى وهو يرى
جسدك بأكمله عارياً أمامه . . غطى يا بنت ، إنه يخشى أن يصيبك
الهواء بضرر يارسمية وترقدين شهراً أو اثنين في المنزل — ولكن
باللخجل يارسمية ! . . . حتى هذا تذكره ؟ . . . ولكن لم الخجل
وهو زوجك وأنت زوجته . . . وأنت يارسمية — رغم ما لقبته
من عذاب الحمل والولادة تتوقين أيضاً إلى ذراعيه — وتتمنين أن

تنتهى هذه الأربعون يوماً ، اليوم قبل الغد . إنك تحبين عبد المعطى ولا تريدین فراقه حتى وإن أعطوك مال الدنيا كلها ، أرضاً كثيرة لا تحدها العين وبيوتاً عديدة كبيوت القرية ، وقطيعاً من الجاموس من مثل جاموستكا هذه ، وهو أيضاً يبادلک هذا الشعور حتى وإن ادعيت غير هذا في بعض الأحيان واتهمته بأنه يتوق للزواج — مرة ثانية — هذا حديث لساعات الصفو فقط تتدللين به عليه فيسره الأمر مثلما يسرك وينتهى الحديث وقد رقد كل منكما بين ذراعى صاحبه وأخذ يؤكد لها حبه بالأقوال والهمسات .

وبعد تلك الليلة التى تركت فيها مرقدك وذهبت تشعلين الزيران المطفاة وتسلقين الفول للجاموسة أخذت على عاتقك إطعام العجل الصغير مثلما تطعمين أمه ، وداومت على ذلك أياماً وشهوراً . . . تجلبين الحشائش الخضراء تطعمينها الأم وتركين أئداء الأم يلقمها العجل الصغير وقد وقف على أرجله بعد مولده بأيام ، ومضى عام كامل وأنت ترضعينه أمه وتطعمينه مما تجلبينه من حشائش غضة ، حتى استتمام عوده وامتلاً لحماً وشمماً وظهرت عليه الصحة والعافية والنشاط . . . واليوم يضع عبد المعطى فى جيبه فوق قلبه ، ورقتين كبيرتين من هذا الورق الحبيب كل منهما بعشرة جنيهات . لقد تعبت طويلاً وأرهقت جسدك كثيراً . . . ولكن بفائدة يا رسمية .

هذه عشرون جنبها . وبعده عشرينات أخرى فوقها يمكنكم شراء .
بضع قراريط تكون ملكا خاصا لكم ، ويكون إنتاجها كله بلا
استثناء ، لكم أتما الاثنين — ولهذه الطفلة الصغيرة وإخوتها .

وبعد عشرون سنة ، لا . . . لا . . . بعد خمسة عشر فقط
سيأتي ابن الحلال ، فتى من شبان القرية الذين يمثلون قوة وصحة ،
مع أبيه وعمه ويقدمان إلى عبد المعطى عشرون جنبها — كهاتان
الورقتان — مهرأ لغروستنا الحبيبة ، هذه — ليلي . . .

لقد كان ميلادها في ليلة تذكركم أحداثها تماماً يارسمية ، كأنها
حدثت بالأمس . ولكن لا الفلوس ولا القراريط — ولا شيء
في الدنيا كلها يعدل هذه اللحظات ، وكل منكم يشعر بأن الآخر
أحب إلى قلبه من نفسه وبأنه يتمنى أن يزداد التصاقه به
واندماجه فيه .

ثم تعودين يارسمية إلى الحمل من جديد . . . تسعة أشهر كاملة
ثم ترقدن فوق الفرن تصرخين وتتصاعد منك الأنات .

ومن يدري ؟ فقد يحدث للجاموسة ثانية مثل ما حدث لك ؟ . .
وقد تتوافق المواعيد كما توافقت في تلك الليلة التي لا زلت تذكركم
كل شيء فيها فتلدان معاً مرة أخرى — ليها لا تترك سنة بدون

ولادة هي الأخرى...!! ولكن يا رسمية— ما بال هذه الجاموسة
تلاحقك في كل مكان من ذكرياتك وتكاد تطغى عليك في كثير
منها؟ ولكن لا يغضبك الأمر يا رسمية ولا يسوءك كل هذا .
لحظة واحدة من تلك اللحظات التي يسود فيها التآلف والامتزاج
بينك وبين عبد المعطى ، لا تملكها الجاموسة ، ولكنها تعوضك
عن كل شيء وترجح كفتك ...

وتدفعك إلى مزيد من العمل والجري والشقاء ، بل وتدفعك
حتى إلى رعاية وخدمة الجاموسة .
